ميشال فريد غريّب

دَامُورْ
مَنْ أنت؟

ميشال فريد غريّب
دامور من أنت؟

دَامُور

مَن أنتِ؟

أو

مأسَاة الدّامُور

ميشال فريد غريّب

توطئة

«إن أردت أن تفهم معنى الصورة،

فدع الصورة تنطبع في قلبك».

[مثل صيني]

مقدمة

الدامور الجديدة

الدامور الجديدة، حُلم في رؤوس المخلصين من أَبنائها وبناتها، أولئك الذين نشأوا في أحضانها واستظلّوا بمَبانيها الحجَرية المتينة. فانطبعَت في نفوسهم صورةُ القِباب الحمراء، وواجهاتها التي تلمع في الشمس، والجنائن الوارفة الظلال، وتلك البسائط الممتدّة التي حوّلَها أجدادنا إلى منتزهات يسرحون فيها قُبَيل الغروب، ليستمتعوا برؤية البحر المنبسط، أو ليحوّلوا أنظارهم إلى الجبال المُطِلّة عليهم من الشرق، فيستمدّوا منها عَزمًا ووَحيًا.

تلك صورةُ الحياة الدافقة، التي فَرَضها على أجدادنا حبُّهم للأرض، للسّهل الذي كان مصدر معاشهم، فالتزموا نمَطَ العيش الهادئ الذي وفّره لهم تراثٌ من الأخلاق، المرتكزة على الانضباط، والوئام واحترام حقوق الآخرين.

هذه البلدة المؤتلفة مع حاضرها، المطمئنّة إلى غَدِها، أصبحت هدَف المعتدين من غرباء ولبنانيين، انقضّوا عليها انقضاض الكواسِر، وفي طَرْفَة عَين حوّلوا قصورَها وأكواخها إلى رُكام.

صورة الخراب المفجِعَة حجبَت في أذهاننا الصورة الأولى المُشرِقة، لكنّها لم تقدر على مَحوِها.

الصورتان تتناوبان أو تتجاوران، تقابلهما صورة ثالثة هي مِن نَسْجِ خيالنا، لأنّ عودة المهجَّرين إلى ديارهم لم تُنتج منذ خمس سنوات سوى عدد من المنازل المتفرّقة، المبنية بالإسمنت الداكِن اللون، تتكدَّس في طبقات هزيلة، تحاذي طرق المرور ولا تترك بينها مساحات تنمو فيها الجنائن والأشجار.

إنّ الدامور التي نحلُم بها هي غير هذه المجمّعات المرتَجلة، على غير نظام. نريدها أبنيةً ذات تصاميم مدروسة، خاضعة لمتطلّبات الصحة والراحة العصرية، تعبّر عن روح

«الطريقُ، الطريقُ، يا ألفَ نحسٍ،

تـارةً آمنـة وطـورًا مخيفــة؟»

من أين أتاني هذا البيت؟ لقد علق في ذهني و لم أعد أعرف مصدره. موجة من الماضي قذفته إلى ذاكرتي وأنا في طريقي إليه. لقد أكدوا لي أنه لجأ إلى الجنوب واني سأجده هناك بالقرب من صيدا إذا كان لا يزال في قيد الحياة. أخذت أعدّ الأسئلة التي أنوي طرحها عليه. الطريق من الدامور إلى الجنوب أصبحت سالكة، أما طريق المعرفة فمحفوفة بالأخطار. الأسئلة كثيرة، كثيرة وهي تزدحم بغير نظام فلا أعرف من أين أبدأ. ازدحام ثم عرقلة. مثل أزمة السير التي نعانيها الآن على الطريق الضيِّق ما بين السعديات والجيه. عندما احترقت سيارتي مع العشرات من أخواتها يوم الاقتحام ظننت أنّ السير على طرقات لبنان بعد الحوادث سيصبح متعة. حسبت أنّ الحسنة الوحيدة التي ستجنيها البلاد من جنون الحرق سيكون القضاء على أزمة السير وإراحة أعصاب لبنان. حساباتي دائمًا خاطئة. عاد الازدحام وعاد السير يتعرقل وعادت الأزمة أشدّ ممّا كانت عليه. كذلك الأسئلة المتراكمة في ذاكرتي... من أين نبدأ؟ لم نعد نتمكن من التقدم فشخة، لا بد من تنظيم. لا بد من ضوء أحمر وأخضر داخل الدماغ. كبستُ على الأخضر وإذا بالسؤال – الشاحنة يتقدم حاجبًا كل ما وراءه: هل عرفتها؟ هل عرفت الدامور حق المعرفة. لقد رسموا لك عن وطنك صورًا خيالية، صورًا خلابة ربما، لكنّها وهميّة وما ان صدمها الواقع حتى سحقها وسحقنا. ثقافتنا زيف بزيف. لو كان لها جذور تمتد إلى أعماق تربتنا حيث هويتنا مدفونة مع الماضي المجهول لانتصب شبابنا كلهم، مسيحيون ومسلمون، لانتصبوا سدًّا منيعًا في وجه الإعصار الانتحاري...

«الطريقُ، الطريقُ، يا ألفَ نحسٍ،

تـارةً آمنـة وطـورًا مخيفــة؟»

الطريق إلى الدامور، أم الطريق إلى معرفة الدامور؟ من يا ترى قال هذا البيت ولماذا يتردّد صداه في حافظتي مع أزيز الرصاص ودوي المدافع؟

«الطريقُ، الطريقُ، يا ألفَ نحسٍ،

تـارةً آمنــة وطـورًا مخيفــة؟»

من أين أتاني هذا البيت؟ لقد علق في ذهني و لم أعد أعرف مصدره. موجة من الماضي قذفته إلى ذاكرتي وأنا في طريقي إليه. لقد أكدوا لي أنه لجأ إلى الجنوب واني سأجده هناك بالقرب من صيدا إذا كان لا يزال في قيد الحياة. أخذت أعدّ الأسئلة التي أنوي طرحها عليه. الطريق من الدامور إلى الجنوب أصبحت سالكة، أما طريق المعرفة فمحفوفة بالأخطار. الأسئلة كثيرة، كثيرة وهي تزدحم بغير نظام فلا أعرف من أين أبدأ. ازدحام ثم عرقلة. مثل أزمة السير التي نعانيها الآن على الطريق الضيِّق ما بين السعديات والجيه. عندما احترقت سيارتي مع العشرات من أخواتها يوم الاقتحام ظننت أنّ السير على طرقات لبنان بعد الحوادث سيصبح متعة. حسبت أنّ الحسنة الوحيدة التي ستجنيها البلاد من جنون الحرق سيكون القضاء على أزمة السير وإراحة أعصاب لبنان. حساباتي دائمًا خاطئة. عاد الازدحام وعاد السير يتعرقل وعادت الأزمة أشدّ ممّا كانت عليه. كذلك الأسئلة المتراكمة في ذاكرتي... من أين نبدأ؟ لم نعد نتمكن من التقدم فشخة، لا بد من تنظيم. لا بد من ضوء أحمر وأخضر داخل الدماغ. كبستُ على الأخضر وإذا بالسؤال – الشاحنة يتقدم حاجبًا كل ما وراءه: هل عرفتها؟ هل عرفت الدامور حق المعرفة. لقد رسموا لك عن وطنك صورًا خيالية، صورًا خلابة ربما، لكنّها وهميّة وما ان صدمها الواقع حتى سحقها وسحقنا. ثقافتنا زيف بزيف. لو كان لها جذور تمتد إلى أعماق تربتنا حيث هويتنا مدفونة مع الماضي المجهول لانتصب شبابنا كلهم، مسيحيون ومسلمون، لانتصبوا سدًّا منيعًا في وجه الإعصار الانتحاري...

«الطريقُ، الطريقُ، يا ألفَ نحسٍ،

تـارةً آمنــة وطـورًا مخيفــة؟»

الطريق إلى الدامور، أم الطريق إلى معرفة الدامور؟ من يا ترى قال هذا البيت ولماذا يتردّد صداه في حافظتي مع أزيز الرصاص ودوي المدافع؟

وأسئلة تزدحم في خاطري وأنا في طريقي إلى الجنوب لعلّي أحظى بكشف الغطاء عن ملفّ الدامور.

*

التقيته في رواق أحد الأديرة حيث لجأت «شلعة» من القطيع المشرَّد. هذا الشيخ يشاع عنه أنه مرجع ثقة لمن أراد البحث في تاريخ الدامور، لكنّه غريب الأطوار: فهو مثقّف ضالع في آداب الغرب والشرق لكنّه أصبح يزدري بالمثقّفين ويفضّل الخبل على الذكاء؛ وهو وطني صادق لكنه يسخر من أمجاد وطنه المزعومة. كان ثريًا ومتديّنًا فأصبح على الحضيض وصار فعل إيمانه محصورًا بكأس العرق. كان شيخًا جليلاً ورب عائلة محترمة أما الآن فلم يبقَ عليه من جلال الشيخوخة سوى لحيته البيضاء الكثيفة. ثيابه رثّة، وجهه شاحب، كئيب، يداه ورجلاه ترتجف باستمرار وصوته أشبه بالحشرجة. عساه لا يزال متمتعًا بقواه العقلية. عرفته على نفسي وكشفت له عن مقصدي، فبادرني بالقول:

– لماذا الكلام على الماضي؟ نحن الآن بأمسّ حاجة إلى النسيان، يا بني، إن أردت إشباع فضولك فعليك بمطالعة الصحف والمجلات وكتب التاريخ.

– لقد طالعت الكثير منها، فلم أجد شيئًا يذكر عن الدامور.

– سعيدة البلدة التي لا تاريخ لها، يا بني، وسعيد الإنسان الذي ينساه الناس! مالنا وللماضي؟ نحن بحاجة إلى التخدير. البنج أعظم اختراع استنبطه دكاترة السياسة. ألست من رأيي؟ إنشاء اللّه يكون في جيبك «شي بطحة عرق».

– آسف! ليس في جيبي إلا أسئلة.

– داموري بدون «بطحة عرق»، داموري مزيّف!

– أنا، يا شيخي، داموري قحّ مثلك ومثلك مهجّر ومنكوب: لقد أحرقوا بيتي ومكتبتي وسيارتي وكلبتي الصغيرة واستولوا على ممتلكاتي وشرّدوني في وطني، لكني أرفض التخدير. أريد أن أفهم، لا أريد أن أنسى. أريد أن أعرف لماذا قتلوا موسى عون وعائلته ولماذا داسوا على جثة ميشال غريّب بعد أن أعدموه؟ لماذا قضوا على أوجيني المتني وأحرقوا أختها الضريرة وهي طريحة الفراش. أريد أن أعرف لماذا لم تصمد الدامور كما صمدت الكحاله وجزين ودير القمر وزحله وغيرها. أريد أن أعرف لماذا

وأسئلة تزدحم في خاطري وأنا في طريقي إلى الجنوب لعلّي أحظى بكشف الغطاء عن ملفّ الدامور.

*

التقيته في رواق أحد الأديرة حيث لجأت «شلعة» من القطيع المشرَّد. هذا الشيخ يشاع عنه أنه مرجع ثقة لمن أراد البحث في تاريخ الدامور، لكنّه غريب الأطوار: فهو مثقّف ضالع في آداب الغرب والشرق لكنّه أصبح يزدري بالمثقّفين ويفضّل الخبل على الذكاء؛ وهو وطني صادق لكنه يسخر من أمجاد وطنه المزعومة. كان ثريًا ومتديّنًا فأصبح على الحضيض وصار فعل إيمانه محصورًا بكأس العرق. كان شيخًا جليلاً ورب عائلة محترمة أما الآن فلم يبقَ عليه من جلال الشيخوخة سوى لحيته البيضاء الكثيفة. ثيابه رثّة، وجهه شاحب، كئيب، يداه ورجلاه ترتجف باستمرار وصوته أشبه بالحشرجة. عساه لا يزال متمتعًا بقواه العقلية. عرفته على نفسي وكشفت له عن مقصدي، فبادرني بالقول:

– لماذا الكلام على الماضي؟ نحن الآن بأمسّ حاجة إلى النسيان، يا بني، إن أردت إشباع فضولك فعليك بمطالعة الصحف والمجلات وكتب التاريخ.

– لقد طالعت الكثير منها، فلم أجد شيئًا يذكر عن الدامور.

– سعيدة البلدة التي لا تاريخ لها، يا بني، وسعيد الإنسان الذي ينساه الناس! مالنا وللماضي؟ نحن بحاجة إلى التخدير. البنج أعظم اختراع استنبطه دكاترة السياسة. ألست من رأيي؟ إنشاء الله يكون في جيبك «شي بطحة عرق».

– آسف! ليس في جيبي إلا أسئلة.

– داموري بدون «بطحة عرق»، داموري مزيّف!

– أنا، يا شيخي، داموري قحّ مثلك ومثلك مهجّر ومنكوب: لقد أحرقوا بيتي ومكتبتي وسيارتي وكلبتي الصغيرة واستولوا على ممتلكاتي وشرّدوني في وطني، لكني أرفض التخدير. أريد أن أفهم، لا أريد أن أنسى. أريد أن أعرف لماذا قتلوا موسى عون وعائلته ولماذا داسوا على جثة ميشال غريّب بعد أن أعدموه؟ لماذا قضوا على أوجيني المتني وأحرقوا أختها الضريرة وهي طريحة الفراش. أريد أن أعرف لماذا لم تصمد الدامور كما صمدت الكحاله وجزين ودير القمر وزحله وغيرها. أريد أن أعرف لماذا

عليهم بجواب؟

عَمدَ الشيخ برهة إلى الصمت والتفكير، ثم قال وكأنّه يستفيق من حلم مزعج:

– لقد غلبتني، سل ما شئت، سأبوح لك ولهم بكل مكنوناتي.

– سمعت صوت الدامور، وأنا في طريقي إليك، سمعته يقول: «لقد أفرَغوني من معناي»... فهل كان لهذه البلدة معنى خاص؟ أريد أن أكتب لأحفادك عن معنى الدامور...

* *

عليهم بجواب؟

عَمدَ الشيخ برهة إلى الصمت والتفكير، ثم قال وكأنّه يستفيق من حلم مزعج:

– لقد غلبتني، سل ما شئت، سأبوح لك ولهم بكل مكنوناتي.

– سمعت صوت الدامور، وأنا في طريقي إليك، سمعته يقول: «لقد أفرَغوني من معناي»... فهل كان لهذه البلدة معنى خاص؟ أريد أن أكتب لأحفادك عن معنى الدامور...

* *

الدامور في العصور القديمة

– كيف أتت إلى حيِّز الوجود؟

– مثلما خرجت «أثينا» من دماغ «جوپيتار»، هكذا أتت الدامور إلى الوجود. إنها وليدة فكرة، أتعرف أسطورة إلاهة أثينا. تقول الحكاية ان «جوپيتار» أصيب يومًا بصداع مؤلم عجز عن شفائه أطباء «الأولمپ». فقصد أخاه «بركان»، إله الحدادين، وشكا له عن حاله، فقال بركان: «دواك عندي!» وضربه بالمطرقة على رأسه، ففجّه شقّتين وإذا بأثينا، إلاهة الحكمة، ذات العينين الصافيتين، تخرج من دماغ جوپيتار وبيدها الرمح والترس. فشفي جوپيتار للحال.

– من لنا بمِطرقة بركان يشفي هذا البلد من صداعه المزمن!

– أتكون من دعاة التقسيم؟

– لا، لكني أتمنى أن يسفر الألم عن ولادة الحكمة. تقول إذن ان الدامور خرجت من دماغ أحد الالهة؟

– نعم، إنما خرجت وبيدها غصن زيتون وهذا أول خطأ.

– خطأ؟

– نعم، خطأ... على الحكمة في هذه الدنيا أن تكون مسلَّحة، لو حملت الدامور منذ مجيئها سيفًا وترسًا مثل أثينا لاحترمها المحاربون وتجنّبوا معاداتها. كم مرة صحنا: نحن قوم مسالمون لا نريد الحرب، لكن الحرب كانت دائمًا تدخل علينا دون استئذان وتطردنا من بيوتنا دون رحمة.

– ومَن هو الإله الذي حملنا في دماغه تسعة أشهر. إنك تثير فضولي.

– الحق يقال انه ليس إلهًا، إنه على صورة لبنان: قزم له طموح مارد، إنسان مهدّد بالموت في كل لحظة لكنّه يحلم بالألوهية وعيناه شاخصتان إلى ما وراء البحار.

– لعلّك تعني الأمير فخر الدين الكبير.

– وأنت، يا شيخي، ما هو رأيك في الموضوع؟

– أنا لي في الموضوع رأي خاص سأطلعك عليه إن دفعت الثمن.

– وما هو الثمن؟

– الثمن سأطلعك عليه في حينه، ومهما كان الأمر فقد كتب للدامور أن يكتنف الغموض واللبس كل مشاكلها وحتى اسمها، أهو شرقي أم غربي؟ فينيقي أم عربي أم فرنجي؟ من يعلم؟

– ولكن يبدو لي أنك تناقض نفسك بنفسك. لقد صرّحت بادئ ذي بدء أن الدامور أتت إلى الوجود على عهد فخر الدين وأنها خرجت من دماغه ثم قلت في تفسيرك أن أصل اللفظة سرياني أو فينيقي أو بابلي وهذا يعني أن الكلمة كانت شائعة قبل عهد المعنيين بمئات السنين. في البدء كانت الكلمة، أليس كذلك؟

– في البدء كانت الأنهار، يا بني.

*

تعال معي لنتجوّل برهة على الساحل الشوفي قبل قدوم المعنيين. ماذا نرى؟ هذه الأكمة التي تربض عليها الدامور الآن كانت في العصور القديمة تغشاها أشجار السنديان والصنوبر والخروب... كانت غابة، غابة كثيفة وكان الشوف كله غابات[7] أتذكر تلك السنديانة الجبارة المنتصبة أمام دار بلدية الدامور تتحدى الزمن وتقلّباته وتشمخ إلى السماء؟

– ومن لا يذكرها؟

– هذه الجبارة التي لم تستطع العواصف ولا الحروب أن تقضي عليها لشدة تكمّشها بالأرض، هي من بقايا العصور الغابرة وضخامة جذعها أصدق شاهد على صحة ما أقول. والآن دعنا نعود إلى نزهتنا عبر الزمن. فلنتوغل بين تلك الأشجار العاتية ولننصت إلى هدير الغابة وهي تموج وتئن تحت هجمة الرياح. ألا نشعر أمام جلال الطبيعة بشيء من الرهبة والخشوع كأنّنا ماثلون أمام حضرة الاهية؟ ان الغابات أفضل

---

٧) على زمن أجدادنا كانت الغابات تغطي ٢٠٪ من مساحة لبنان أما اليوم فهبط المعدّل إلى ٦ أو ٧٪ فقط. (من حديث مع وزير البيئة في مجلّة ماغازين عدد ٢٩/٦/٩١)

– وأنت، يا شيخي، ما هو رأيك في الموضوع؟

– أنا لي في الموضوع رأي خاص سأطلعك عليه إن دفعت الثمن.

– وما هو الثمن؟

– الثمن سأطلعك عليه في حينه، ومهما كان الأمر فقد كتب للدامور أن يكتنف الغموض واللبس كل مشاكلها وحتى اسمها، أهو شرقي أم غربي؟ فينيقي أم عربي أم فرنجي؟ من يعلم؟

– ولكن يبدو لي أنك تناقض نفسك بنفسك. لقد صرّحت بادئ ذي بدء أن الدامور أتت إلى الوجود على عهد فخر الدين وأنها خرجت من دماغه ثم قلت في تفسيرك أن أصل اللفظة سرياني أو فينيقي أو بابلي وهذا يعني أن الكلمة كانت شائعة قبل عهد المعنيين بمئات السنين. في البدء كانت الكلمة، أليس كذلك؟

– في البدء كانت الأنهار، يا بني.

*

تعال معي لنتجوّل برهة على الساحل الشوفي قبل قدوم المعنيين. ماذا نرى؟ هذه الأكمة التي تربض عليها الدامور الآن كانت في العصور القديمة تغشاها أشجار السنديان والصنوبر والخروب... كانت غابة، غابة كثيفة وكان الشوف كله غابات[٧] أتذكر تلك السنديانة الجبارة المنتصبة أمام دار بلدية الدامور تتحدى الزمن وتقلّباته وتشمخ إلى السماء؟

– ومن لا يذكرها؟

– هذه الجبارة التي لم تستطع العواصف ولا الحروب أن تقضي عليها لشدة تكمُّشها بالأرض، هي من بقايا العصور الغابرة وضخامة جذعها أصدق شاهد على صحة ما أقول. والآن دعنا نعود إلى نزهتنا عبر الزمن. فلنتوغل بين تلك الأشجار العاتية ولننصت إلى هدير الغابة وهي تموج وتئن تحت هجمة الرياح. ألا نشعر أمام جلال الطبيعة بشيء من الرهبة والخشوع كأننا ماثلون أمام حضرة الاهية؟ ان الغابات أفضل

---

٧) على زمن أجدادنا كانت الغابات تغطي ٢٠٪ من مساحة لبنان أما اليوم فهبط المعدّل إلى ٦ أو ٧٪ فقط. (من حديث مع وزير البيئة في مجلّة ماغازين عدد ٩١/٦/٢٩)

وفي صور كانوا يعبدون بعل وملقرت وهركل[11] أما صيدون فثالوثها المقدس يتألف من كنع وفينيق ودامور. ويرى الباحثون في هذا التثليث «انعكاسًا تاريخيًا» لحياة الأمة فكنع يشير إلى كنعان، العنصر الأصلي للذين استوطنوا في تلك المنطقة، وفينيق يدل على العنصر الفينيقي.

– ودامور؟ لم يقل لنا الكاهن شيئًا عن أصل هذا الإله الذي يدمر ويعمر...

– نعم، يبقى هذا اللغز، يبقى دامور معلّقًا يكتنفه الغموض... لكن التاريخ والجغرافيا سيلقيان بعض النور على ظلمات الماضي وقد يكشفان لي ولك عن معنى هذه الكلمة المحيرة.

فلنراقب قليلاً سلوك هذا الكاهن. لقد غادر الهيكل وأقفل راجعًا إلى بلده صيدون بعد أن أتم صلاته وأحرق البخور على مذبح الإله المثلث الوجوه. لقد انحدر من الرابية إلى أسفل الوادي متجهًا نحو الجنوب الغربي وأخذ يشق طريقه نحو النهر عبر الصخور المكسّرة بالقندول والوزال والزنبق البري. ها هو يتوقف فجأة وينحني باحترام ثم يجثو راكعًا على ضفة النهر، أنظر! إنه يمد يديه نحو الماء وهو يتمتم كلمات غير مفهومة. أمامه تندفع المياه بسرعة وهي ترغي وتزبد كأنها شديدة اللهفة لمعانقة أمواج البحر الفينيقي، هذا النهر هو الحد الفاصل ما بين مملكتي صور وصيدا من جهة وبيروت وجبيل من جهة أخرى. سكان صور وصيدا وسكان الساحل الممتد من نهر الدامور إلى جبيل هم بأكثريتهم الساحقة فينيقيون. اما القسم الشمالي فيتواجد فيه كثير من الآراميين النازحين من سوريا إلى سهل البقاع...

هذا النهر له أهمية كبرى بالنسبة لسكان السواحل الفينيقية. فهو يفصل ويحمي. إنه يجسد «الأمر الإلهي» الذي يقسم الممالك ويحمي ظهر صيدون من غزوات الشمال. أنظر! لقد بدأ الربيع يتجلّى في تدفق الماء، بدأت الثلوج تذوب على قمم لبنان وبدأت الأنهار تستعد لبعث الخصب في عروق الكائنات. هذه المياه الثائرة بيدها الموت والحياة والانحلال والتجدد. «حذار! يقول هزيود، إياك أن تجتاز نهرًا بدون أن تتبارك بمياهه وتوجه إليه صلاة شكر!».

---

(١١) بعل، أي السيد أو الرب. وملقرت ملك المدينة المحصنة. أما هركل فهو الإله التاجر الدوار وبذات الوقت الفاتح المحارب. وملقرت هو أيضًا زوج عشتروت ووالد أشمون: المثلث الأقدس الذي حلف هنيبعل اليمين أمامه سنة ٢١٥ ق.م.).

وفي صور كانوا يعبدون بعل وملقرت وهركل[١١] أما صيدون فثالوثها المقدس يتألف من كنع وفينيق ودامور. ويرى الباحثون في هذا التثليث «انعكاسًا تاريخيًا» لحياة الأمة فكنع يشير إلى كنعان، العنصر الأصلي للذين استوطنوا في تلك المنطقة، وفينيق يدل على العنصر الفينيقي.

– ودامور؟ لم يقل لنا الكاهن شيئًا عن أصل هذا الإله الذي يدمر ويعمر...

– نعم، يبقى هذا اللغز، يبقى دامور معلَّقًا يكتنفه الغموض... لكن التاريخ والجغرافيا سيلقيان بعض النور على ظلمات الماضي وقد يكشفان لي ولك عن معنى هذه الكلمة المحيرة.

فلنراقب قليلاً سلوك هذا الكاهن. لقد غادر الهيكل وأقفل راجعًا إلى بلده صيدون بعد أن أتم صلاته وأحرق البخور على مذبح الإله المثلث الوجوه. لقد انحدر من الرابية إلى أسفل الوادي متجهًا نحو الجنوب الغربي وأخذ يشق طريقه نحو النهر عبر الصخور المكسَّرة بالقندول والوزال والزنبق البري. ها هو يتوقف فجأة وينحني باحترام ثم يجثو راكعًا على ضفة النهر، أنظر! إنه يمد يديه نحو الماء وهو يتمتم كلمات غير مفهومة. أمامه تندفع المياه بسرعة وهي ترغي وتزبد كأنها شديدة اللهفة لمعانقة أمواج البحر الفينيقي، هذا النهر هو الحد الفاصل ما بين مملكتي صور وصيدا من جهة وبيروت وجبيل من جهة أخرى. سكان صور وصيدا وسكان الساحل الممتد من نهر الدامور إلى جبيل هم بأكثريتهم الساحقة فينيقيون. اما القسم الشمالي فيتواجد فيه كثير من الآراميين النازحين من سوريا إلى سهل البقاع...

هذا النهر له أهمية كبرى بالنسبة لسكان السواحل الفينيقية. فهو يفصل ويحمي. إنه يجسد «الأمر الإلهي» الذي يقسم الممالك ويحمي ظهر صيدون من غزوات الشمال. أنظر! لقد بدأ الربيع يتجلّى في تدفق الماء، بدأت الثلوج تذوب على قمم لبنان وبدأت الأنهار تستعد لبعث الخصب في عروق الكائنات. هذه المياه الثائرة بيدها الموت والحياة والانحلال والتجدد. «حذار! يقول هزيود، إياك أن تجتاز نهرًا بدون أن تتبارك بمياهه وتوجه إليه صلاة شكر!».

---

(١١) بعل، أي السيد أو الرب. وملقرت ملك المدينة المحصنة. أما هركل فهو الإله التاجر الدوار وبذات الوقت الفاتح المحارب. وملقرت هو أيضًا زوج عشتروت ووالد أشمون: المثلث الأقدس الذي حلف هنيبعل اليمين أمامه سنة ٢١٥ ق.م.).

كان مسكنهم واختبأوا في الملجأ. أما عمتي فكانت منهمكة بتحضير طعام الغداء وأبت أن تغادر مطبخها وقِدْ رَها مفضلة أن تخاطر بحياتها على أن «تشوشط» الطبخة. بالنتيجة سقطت إحدى القذائف على الملجأ ودمّرته فقتل عمي وجرح أولاده الأربعة، أما عمتي فلم تصب بأذى...

لم ينته من كلامه حتى أخذت القذائف تنهال حوالي الدير وسمعنا صرخات استغاثة تأتي من الخارج من جهة الطريق، فامتقع لون الشيخ واشتدت الرجفة على يديه ورجليه، فقال بصوت خافت:

– الأحسن أن ننزل إلى الملجأ. ظننت أنها مباراة حبية ولكن يبدو لي...

فقاطعته وقلت شامتًا:

– وأنا يبدو لي أنك أنت أيضًا تخاف الموت؟

– أخاف، نعم، أخاف. لا أخاف الموت لكوني قد شبعت من عمري، لكن أخاف أن أدفن في تربة غير تربة الدامور. بربك قل لي، هل قضوا على السنديانة في ساحة البلدية؟ ألم تمرّ بها؟

– لا. لا أعرف عنها شيئًا. لم أمر من هناك.

– لقد كلفت صاحبنا ن. ع. أن يستخبر عن السنديانة وهو في طريقه إلى بيروت. نفسي تحدثني بأني لن أرجع إلى الدامور إذا كانوا حرقوا السنديانة... لماذا؟ لا أدري. لقد خلق فيّ اليأس حسًا سادسًا. وهذا الحس ينبئني بأنّي لن أدفن في تربة الدامور، إذا قضوا على تلك الشجرة التي تجسّد بشموخها ديمومة الدامور. إنني أتقبل المصائب كلها بصدر رحب. لكني أرفض أن أدفن في أرض غريبة. أليس من حقوق الإنسان أن يرقد بسلام في التربة التي تضم رفات أجداده! يحاولون إعطاء هذه المجزرة القذرة مبررات عقائدية. وهل من عقيدة تبرر حرماننا دفن موتانا في أرض آبائنا وأجدادنا؟

– وما هي المبرّرات إذن، يا شيخي؟

حاول التهرب من الجواب وأخذ يتمتم مخاطبًا نفسه: «جريمة في عقر دارنا، جريمة الجرائم داخل العصفورية أمام أعين المجانين. نحن الشهود ولا شهود غيرنا. شهود مجانين على جريمة الجنون. المجنون غير مسؤول. أنشهد بالزور؟ أنتحصن بالصمت؟ إذا

كان مسكنهم واختبأوا في الملجأ. أما عمتي فكانت منهمكة بتحضير طعام الغداء وأبت أن تغادر مطبخها وقِدْ رَها مفضلة أن تخاطر بحياتها على أن «تشوشط» الطبخة. بالنتيجة سقطت إحدى القذائف على الملجأ ودمّرته فقتل عمي وجرح أولاده الأربعة، أما عمتي فلم تصب بأذى...

لم ينته من كلامه حتى أخذت القذائف تنهال حوالي الدير وسمعنا صرخات استغاثة تأتي من الخارج من جهة الطريق، فامتقع لون الشيخ واشتدت الرجفة على يديه ورجليه، فقال بصوت خافت:

– الأحسن أن ننزل إلى الملجأ. ظننت أنها مباراة حبية ولكن يبدو لي...

فقاطعته وقلت شامتًا:

– وأنا يبدو لي أنك أنت أيضًا تخاف الموت؟

– أخاف، نعم، أخاف. لا أخاف الموت لكوني قد شبعت من عمري، لكن أخاف أن أدفن في تربة غير تربة الدامور. بربك قل لي، هل قضوا على السنديانة في ساحة البلدية؟ ألم تمرّ بها؟

– لا. لا أعرف عنها شيئًا. لم أمر من هناك.

– لقد كلفت صاحبنا ن. ع. أن يستخبر عن السنديانة وهو في طريقه إلى بيروت. نفسي تحدثني بأني لن أرجع إلى الدامور إذا كانوا حرقوا السنديانة... لماذا؟ لا أدري. لقد خلق فيّ اليأس حسًا سادسًا. وهذا الحس ينبئني بأنّي لن أدفن في تربة الدامور، إذا قضوا على تلك الشجرة التي تجسّد بشموخها ديمومة الدامور. إنني أتقبل المصائب كلها بصدر رحب. لكني أرفض أن أدفن في أرض غريبة. أليس من حقوق الإنسان أن يرقد بسلام في التربة التي تضم رفات أجداده! يحاولون إعطاء هذه المجزرة القذرة مبررات عقائدية. وهل من عقيدة تبرر حرماننا دفن موتانا في أرض آبائنا وأجدادنا؟

– وما هي المبرّرات إذن، يا شيخي؟

حاول التهرب من الجواب وأخذ يتمتم مخاطبًا نفسه: «جريمة في عقر دارنا، جريمة الجرائم داخل العصفورية أمام أعين المجانين. نحن الشهود ولا شهود غيرنا. شهود مجانين على جريمة الجنون. المجنون غير مسؤول. أنشهد بالزور؟ أنتحصن بالصمت؟ إذا

– ألا تسمع أصوات استغاثة؟ ألا تسمع صوت...؟

– لقد عاد الهدوء الآن، يا شيخي. أثناء القصف سمعنا صرخة استغاثة. وقد تولى الصليب الأحمر نقل الجريح إلى المستشفى، والآن قد عاد الهدوء فلنرجع إلى موضوعنا.

– عن أي شيء كنا نتحدث؟ إني لا أزال أسمع صرخات استغاثة.

– كنا نتحدث عن وضع الدامور الجغرافي.

– ربما... أرجوك أن تعذرني. لم أعد أذكر شيئًا. أنا مريض. مريض ومرهق. معي نشاف بالعروق. وهذا طبيعي بالنسبة لعمري.

– كيف يمكنني إسعافك؟ أتريد كوبًا من الماء؟

لاحظت أن الشيخ في حالة اضطراب شديد وأنّه لم يعد يقوى على الوقوف. النور الذي كان يتدفّق من عينيه وهو يحدثني عن الدامور قد جفّ. وصار جسمه كله يرتعش ويتشنج. أجلسته على كرسي وكررت سؤالي:

– ألا تريد كوبًا من الماء؟ ألم يعطوك حبوبًا لتهدئة الأعصاب؟

ابتسم ابتسامةً كئيبة وقال:

– أنا لا أؤمن بالعقاقير. إذا أردت أن أتابع حكايتي فعليك أن تساعدني على استرجاع ذاكرتي. وهذا يتطلب زجاجة عرق من شغل الرهبان. بالقرب من المدخل دكان صغير يبيعون فيه منتوجات الدير. فاسعفني بزجاجة لعلّي أتخلص من هذه الأزمة.

امتثلت وجئته بما طلب. فنزع الفلينة بيده المرتجفة وقرّب الزجاجة من أنفه وأخذ يتنشّق بنهم رائحة العرق المثلث وهو يقول:

– رائحة اليانسون، ما أذكاها. إنها تنعش القلب وتطلق اللسان. هذا العرق الراقد في أقبية الدير له طعم العرق الذي كنت أعتّقه في بيتي.

– ألا تريد قليلاً من الماء مع العرق؟

– لا! بلعة أولى بدون ماء لتهدئة الأعصاب، ثم بلعة ثانية لإزالة الانقباض، وبعد الثالثة تدب الحرارة في العروق الهرمة فيعود الدم إلى دورته الطبيعية وتستيقظ الذاكرة. أنصت! ألا تسمع الآن أصوات استغاثة، أصوات غريبة عجيبة تنطلق من قعر الوادي؟

– ألا تسمع أصوات استغاثة؟ ألا تسمع صوت...؟

– لقد عاد الهدوء الآن، يا شيخي. أثناء القصف سمعنا صرخة استغاثة. وقد تولى الصليب الأحمر نقل الجريح إلى المستشفى، والآن قد عاد الهدوء فلنرجع إلى موضوعنا.

– عن أي شيء كنا نتحدث؟ إني لا أزال أسمع صرخات استغاثة.

– كنا نتحدث عن وضع الدامور الجغرافي.

– ربما... أرجوك أن تعذرني. لم أعد أذكر شيئًا. أنا مريض. مريض ومرهق. معي نشاف بالعروق. وهذا طبيعي بالنسبة لعمري.

– كيف يمكنني إسعافك؟ أتريد كوبًا من الماء؟

لاحظت أن الشيخ في حالة اضطراب شديد وأنّه لم يعد يقوى على الوقوف. النور الذي كان يتدفّق من عينيه وهو يحدثني عن الدامور قد جفّ. وصار جسمه كله يرتعش ويتشنج. أجلسته على كرسي وكررت سؤالي:

– ألا تريد كوبًا من الماء؟ ألم يعطوك حبوبًا لتهدئة الأعصاب؟

ابتسم ابتسامةً كئيبة وقال:

– أنا لا أؤمن بالعقاقير. إذا أردت أن أتابع حكايتي فعليك أن تساعدني على استرجاع ذاكرتي. وهذا يتطلب زجاجة عرق من شغل الرهبان. بالقرب من المدخل دكان صغير يبيعون فيه منتوجات الدير. فاسعفني بزجاجة لعلّي أتخلص من هذه الأزمة.

امتثلت وجئته بما طلب. فنزع الفلينة بيده المرتجفة وقرّب الزجاجة من أنفه وأخذ يتنشّق بنهم رائحة العرق المثلث وهو يقول:

– رائحة اليانسون، ما أذكاها. إنها تنعش القلب وتطلق اللسان. هذا العرق الراقد في أقبية الدير له طعم العرق الذي كنت أعتّقه في بيتي.

– ألا تريد قليلاً من الماء مع العرق؟

– لا! بلعة أولى بدون ماء لتهدئة الأعصاب، ثم بلعة ثانية لإزالة الانقباض، وبعد الثالثة تدب الحرارة في العروق الهرمة فيعود الدم إلى دورته الطبيعية وتستيقظ الذاكرة. أنصت! ألا تسمع الآن أصوات استغاثة، أصوات غريبة عجيبة تنطلق من قعر الوادي؟

لوضع المنطقة ولمعنى الدامور، وقد اقتطفت لك هنيهة مثيرة من الهنيهات التي طواها الزمن ففاجأتك بهجوم الفيلة. هذا الهجوم ليس مجرَّد خيال. إنه افتتاح لمعركة تاريخية حاسمة دارت رحاها نحو مئتي سنة قبل الميلاد وكان مسرحها ضفاف نهر الدامور بالذات. في ذلك الحين كان الصراع الدامي على أشده ما بين مصر وسوريا، أو بالأحرى ما بين بطالسة مصر وسلوقيي سوريا. كلا الفريقين يتنازعان السيطرة على طريق فلسطين. أجل، فلسطين كانت ولا تزال بيت القصيد في معضلات الشرق الأوسط. والطريق إليها لا تصير آمنة إلا بعد الاستيلاء على هذه النقطة الاستراتيجية أعني بها مصب نهر الدامور. هنا التقى الجيشان، الجيش السوري بقيادة انطيوخوس الكبير، تمركز على الضفة الشمالية بينما تربّص له المصريون، بقيادة نيقولاوس، في الجيب الذي حفرته السيول ما بين السيّار والسعديات. كتائب المشاة السورية لا تستطيع التحرك إلا ببطء نظرًا لثقل الأسلحة التي يحملها الجنود: دروع كبيرة مصفحة بجلود البقر وسيوف ذات حدين ورماح طويلة... المصريون يتفوّقون عليهم بدقة الرماية وبسرعة التحرك لأنّ أسلحتهم أخف وزنًا. لكن السلوقيين أخذوا عن الهنود استعمال الفيلة في المعارك والفيلة كانت تقوم مقام المصفحات والدبابات في أيامنا هذه أي انها تفتح ثغرة في دفاع العدو وتمهد لهجوم المشاة. فما ان بزغ الفجر ودق النفير حتى هجم السوريون بأفيالهم عبر النهر محطّمين خط دفاع العدو ثم لحقت بهم كتائب «الهوبليتس»[١٢] ثم الحرَس الملكي فدحروا جيش نيقولاوس وأسروا منه أكثر من ألفي جندي. انتصارهم هذا فتح أمامهم باب الجنوب على مصراعيه فزحفوا إلى فلسطين وانتزعوها من المصريين. لقد اخترت لك هذا المشهد التاريخي لأبيّن لك أهمية الدامور من الناحية الاستراتيجية.

– حسنًا، لكنك مهما تداورت على التاريخ وتوغلت في منعرجاته فلن يمكنك إقناعي بأن الدامور هي مفتاح فلسطين.

– الدامور مفتاح بيروت بالنسبة للقادمين من الجنوب كما انها مفتاح الجنوب بالنسبة للآتين من الشمال، إنها عقدة مهمة لا بد لكل فاتح من فكها ليتابع سيره نحو الهدف.

---

١٢ المشاة في جيش السلوقيين.

لوضع المنطقة ولمعنى الدامور، وقد اقتطفت لك هنيهة مثيرة من الهنيهات التي طواها الزمن ففاجأتك بهجوم الفيلة. هذا الهجوم ليس مجرَّد خيال. إنه افتتاح لمعركة تاريخية حاسمة دارت رحاها نحو مئتي سنة قبل الميلاد وكان مسرحها ضفاف نهر الدامور بالذات. في ذلك الحين كان الصراع الدامي على أشده ما بين مصر وسوريا، أو بالأحرى ما بين بطالسة مصر وسلوقيي سوريا. كلا الفريقين يتنازعان السيطرة على طريق فلسطين. أجل، فلسطين كانت ولا تزال بيت القصيد في معضلات الشرق الأوسط. والطريق إليها لا تصير آمنة إلا بعد الاستيلاء على هذه النقطة الاستراتيجية أعني بها مصب نهر الدامور. هنا التقى الجيشان، الجيش السوري بقيادة انطيوخوس الكبير، تمركز على الضفة الشمالية بينما تربّص له المصريون، بقيادة نيقولاوس، في الجيب الذي حفرته السيول ما بين السيّار والسعديات. كتائب المشاة السورية لا تستطيع التحرك إلا ببطء نظرًا لثقل الأسلحة التي يحملها الجنود: دروع كبيرة مصفحة بجلود البقر وسيوف ذات حدين ورماح طويلة... المصريون يتفوّقون عليهم بدقة الرماية وبسرعة التحرك لأنّ أسلحتهم أخف وزنًا. لكن السلوقيين أخذوا عن الهنود استعمال الفيلة في المعارك والفيلة كانت تقوم مقام المصفحات والدبابات في أيامنا هذه أي انها تفتح ثغرة في دفاع العدو وتمهد لهجوم المشاة. فما ان بزغ الفجر ودق النفير حتى هجم السوريون بأفيالهم عبر النهر محطّمين خط دفاع العدو ثم لحقت بهم كتائب «الهوبليتس»[١٢] ثم الحرَس الملكي فدحروا جيش نيقولاوس وأسروا منه أكثر من ألفي جندي. انتصارهم هذا فتح أمامهم باب الجنوب على مصراعيه فزحفوا إلى فلسطين وانتزعوها من المصريين. لقد اخترت لك هذا المشهد التاريخي لأبيّن لك أهمية الدامور من الناحية الاستراتيجية.

– حسنًا، لكنك مهما تداورت على التاريخ وتوغلت في منعرجاته فلن يمكنك إقناعي بأن الدامور هي مفتاح فلسطين.

– الدامور مفتاح بيروت بالنسبة للقادمين من الجنوب كما انها مفتاح الجنوب بالنسبة للآتين من الشمال، إنها عقدة مهمة لا بد لكل فاتح من فكها ليتابع سيره نحو الهدف.

---

١٢ المشاة في جيش السلوقيين.

فيه ممرين اجتيازهما صعب وخطر: الأول مصب نهر الكلب والثاني مصب نهر الدامور. وبما أنك تريد أن أحصر كلامي في ما يتعلق ببلدتنا، فإني أدعوك لتفحص الأرض القائمة عليها تلك البلدة المنكودة الحظ، فبين حارة الناعمة وحارة الروس واد صغير حفرته السيول وبين معلّقة الدامور والدامور القديمة ساقية «أبو دمعه»، وبين الدامور القديمة وتلة الحمرا المحاذية لمصب النهر يوجد أيضًا ساقية «غيلانه» ثم نهر الدامور وقبل أن تصل إلى السعديات عليك أن تجتاز حفرة حفرتها السيول أيضًا في محلة السيار. فالدامور، كما ترى، محاطة بمتاريس طبيعية حفرتها السواقي والسيول. إنتبه إلى الشوف، إلى جبل الشوف كيف انه يقوّس ظهره ويمدّ قرونه لينطح البحر ما بين خلده والسعديات: الدامور هنا ما بين القرنين الخطرين، الممر منها إلى السعديات ضيق والأرض وعرة. عبور النهر ليس بالشيء اليسير عندما يرابط العدو على ضفته إذ يكفي لشرذمة من الجنود أن تكمن وراء الصخور الممتدّة على جوانب الوادي لتقطع الطريق على جيش جرار. إن الغزوات الكبرى التي استهدفت الاستيلاء على بلاد الشرق الأوسط مرّت كلها بنهر الدامور وكثيرًا ما دارت المعركة الحاسمة هنا على شفير هذا الوادي الذي تغزّل بجماله الرحّالة. من هنا مرّ الجيش الأشوري الذي اقتحم صيدا ودمّرها نحو سبعماية سنة قبل الميلاد ومن هنا مرّت غزوات الحثيين والبابليين وجيوش قمبيز والاسكندر المقدوني ثم كتائب الرومانيين وحملات الصليبيين وبيارق الفتح العربي وخيالة الماريشال اللّنبي... أتذكر ما قاله الجنرال دنز أثناء حرب ١٩٤١؟

– أذكر أنّه أعلن بيروت مدينة مفتوحة وقال: إذا سقطت الدامور انتهت الحرب.

– وهكذا كان.

– ولكن كيف سقطت الدامور آنذاك؟

– أرجوك أن لا تستبق الحوادث، سيأتيك الشرح في حينه.

أعتقد أنّك فهمت الآن أنّ موقع الدامور الجغرافي هو الذي جعل لها «في كل عرس قرص»، فكلما عصف بلبنان حرب أو تعرضت البلاد لغزوة أو فتنة، كان على الدامور المسكينة أن تتحمل القسط الأوفر من الدمار والتشريد والشقاء.

– لقد فهمت ذلك، لكني لا أزال أنتظر تفسيرك للفظة دامور. أهي عربية أم فينيقية؟

فيه ممرين اجتيازهما صعب وخطر: الأول مصب نهر الكلب والثاني مصب نهر الدامور. وبما أنك تريد أن أحصر كلامي في ما يتعلق ببلدتنا، فإني أدعوك لتفحص الأرض القائمة عليها تلك البلدة المنكودة الحظ، فبين حارة الناعمة وحارة الروس واد صغير حفرته السيول وبين معلّقة الدامور والدامور القديمة ساقية «أبو دمعه»، وبين الدامور القديمة وتلة الحمرا المحاذية لمصب النهر يوجد أيضًا ساقية «غيلانه» ثم نهر الدامور وقبل أن تصل إلى السعديات عليك أن تجتاز حفرة حفرتها السيول أيضًا في محلة السيار. فالدامور، كما ترى، محاطة بمتاريس طبيعية حفرتها السواقي والسيول. إنتبه إلى الشوف، إلى جبل الشوف كيف انه يقوّس ظهره ويمدّ قرونه لينطح البحر ما بين خلده والسعديات: الدامور هنا ما بين القرنين الخطرين، الممر منها إلى السعديات ضيق والأرض وعرة. عبور النهر ليس بالشيء اليسير عندما يرابط العدو على ضفته إذ يكفي لشرذمة من الجنود أن تكمن وراء الصخور الممتدّة على جوانب الوادي لتقطع الطريق على جيش جرار. إن الغزوات الكبرى التي استهدفت الاستيلاء على بلاد الشرق الأوسط مرّت كلها بنهر الدامور وكثيرًا ما دارت المعركة الحاسمة هنا على شفير هذا الوادي الذي تغزّل بجماله الرحّالة. من هنا مرّ الجيش الأشوري الذي اقتحم صيدا ودمّرها نحو سبعماية سنة قبل الميلاد ومن هنا مرّت غزوات الحثيين والبابليين وجيوش قمبيز والاسكندر المقدوني ثم كتائب الرومانيين وحملات الصليبيين وبيارق الفتح العربي وخيالة الماريشال اللّنبي... أتذكر ما قاله الجنرال دنز أثناء حرب ١٩٤١؟

– أذكر أنّه أعلن بيروت مدينة مفتوحة وقال: إذا سقطت الدامور انتهت الحرب.

– وهكذا كان.

– ولكن كيف سقطت الدامور آنذاك؟

– أرجوك أن لا تستبق الحوادث، سيأتيك الشرح في حينه.

أعتقد أنّك فهمت الآن أنّ موقع الدامور الجغرافي هو الذي جعل لها «في كل عرس قرص»، فكلما عصف بلبنان حرب أو تعرضت البلاد لغزوة أو فتنة، كان على الدامور المسكينة أن تتحمل القسط الأوفر من الدمار والتشريد والشقاء.

– لقد فهمت ذلك، لكني لا أزال أنتظر تفسيرك للفظة دامور. أهي عربية أم فينيقية؟

الساحلية وكنيستها الكرسي الأول في بطريركية انطاكية وجعلت تحت حكمها كراسي أسقفيات صيدا وجبيل والبترون، أما بيروت فكان عليها مطران مستقل. وكانت المنطقة الممتدة بين صيدا وبيروت، الموافقة لمقام النبي يونس وبرجا، تدعى «برفيريون» Porphyrion وكان فيها كنيسة ودير ورد ذكرهما في كتُب المؤرخ البيزنطي «بروكوبيوس» Procope[١٣]. الدامور كبلدة لم تكن أتت بعد إلى حيِّز الوجود، أما النهر فكان معروفًا وكان يعتبر الحدَّ الفاصل ما بين منطقة صيدا ومنطقة بيروت ويرجِّح علماء الآثار أن ثمة بلدة قديمة كانت قائمة حيث تقوم اليوم قرية الناعمة وكانت تدعى «ليونتوبوليس» Léontopolis أي مدينة الأسُود وقد ورد أيضًا في تواريخ الرومانيين ذكر محطة خلده وبما أن حرف الخاء غير موجود في اللاتينية فاستبدلوه بالهاء وسموها «هلده» Mutatio Heldua وكان فيها هيكل قديم ما لبث أن حلَّت محله كنيسة بيزنطية وهي التي كشفت آثارها مؤخرًا بمناسبة شق أوتوستراد خلده – الدامور.

بعد افتتاح صور على يد الصليبيين أصبحت سواحل لبنان كلها تحت سيطرة الافرنج وقد تمّ ذلك في أوائل القرن الثاني عشر م. قسَّم الصليبيون البلاد الواقعة تحت حكمهم إلى أربع ممالك: مملكة أورشليم وهي تمتد من شبه جزيرة سينا إلى نهر الكلب وإمارة طرابلس وإمارة إنطاكية وإمارة الرها. وكانت صيدا وجوارها تؤلف «بارونية» ذات استقلال داخلي يدير شؤونها بارون من أسرة غوتيار وكانت تمتد من الليطاني إلى نهر الدامور وتبسط سيادتها على عدلون والصرفند وأنحاء جزين وقسم من الشوف. أما بارونية بيروت فكانت تمتد من نهر الدامور إلى نهر الكلب وكانت البارونيتان خاضعتين فيما يختص بشؤونهما الخارجية لملك أورشليم.

– إذن حتى الآن المعروف هو نهر الدامور. أما البلدة فليس لها ذكر.

– صحيح.

– والنهر هو الحدّ الفاصل بين منطقة صيدا ومنطقة بيروت كما كان على عهد الفينيقيين. وقد لقّبوه دامور على اسم أحد الالهة الذي كان يعبده الصيدونيون. هذا الموضوع أصبح واضحًا كلّ الوضوح ولا أفهم لماذا يكون لك فيه رأي خاص.

– لأنّك أردت أن تعرف مصدر الكلمة. أما ذكرنا أنّ أسماء آلهة صيدون لا بدَّ أن

١٣ عن الأب هنري لامنس: آثار لبنان.

الساحلية وكنيستها الكرسي الأول في بطريركية انطاكية وجعلت تحت حكمها كراسي أسقفيات صيدا وجبيل والبترون، أما بيروت فكان عليها مطران مستقل. وكانت المنطقة الممتدة بين صيدا وبيروت، الموافقة لمقام النبي يونس وبرجا، تدعى «برفيريون» Porphyrion وكان فيها كنيسة ودير ورد ذكرهما في كتُب المؤرخ البيزنطي «بروكوبيوس» Procope[١٣]. الدامور كبلدة لم تكن أتت بعد إلى حيِّز الوجود، أما النهر فكان معروفًا وكان يعتبر الحدَّ الفاصل ما بين منطقة صيدا ومنطقة بيروت ويرجِّح علماء الآثار أن ثمة بلدة قديمة كانت قائمة حيث تقوم اليوم قرية الناعمة وكانت تدعى «ليونتوبوليس» Léontopolis أي مدينة الأسُود وقد ورد أيضًا في تواريخ الرومانيين ذكر محطة خلده وبما أن حرف الخاء غير موجود في اللاتينية فاستبدلوه بالهاء وسموها «هلده» Mutatio Heldua وكان فيها هيكل قديم ما لبث أن حلَّت محله كنيسة بيزنطية وهي التي كشفت آثارها مؤخرًا بمناسبة شق أوتوستراد خلده – الدامور.

بعد افتتاح صور على يد الصليبيين أصبحت سواحل لبنان كلها تحت سيطرة الافرنج وقد تمّ ذلك في أوائل القرن الثاني عشر م. قسَّم الصليبيون البلاد الواقعة تحت حكمهم إلى أربع ممالك: مملكة أورشليم وهي تمتد من شبه جزيرة سينا إلى نهر الكلب وإمارة طرابلس وإمارة إنطاكية وإمارة الرها. وكانت صيدا وجوارها تؤلف «بارونية» ذات استقلال داخلي يدير شؤونها بارون من أسرة غوتيار وكانت تمتد من الليطاني إلى نهر الدامور وتبسط سيادتها على عدلون والصرفند وأنحاء جزين وقسم من الشوف. أما بارونية بيروت فكانت تمتد من نهر الدامور إلى نهر الكلب وكانت البارونيتان خاضعتين فيما يختص بشؤونهما الخارجية لملك أورشليم.

– إذن حتى الآن المعروف هو نهر الدامور. أما البلدة فليس لها ذكر.

– صحيح.

– والنهر هو الحدّ الفاصل بين منطقة صيدا ومنطقة بيروت كما كان على عهد الفينيقيين. وقد لقّبوه دامور على اسم أحد الالهة الذي كان يعبده الصيدونيون. هذا الموضوع أصبح واضحًا كلّ الوضوح ولا أفهم لماذا يكون لك فيه رأي خاص.

– لأنّك أردت أن تعرف مصدر الكلمة. أما ذكرنا أنّ أسماء آلهة صيدون لا بدَّ أن

---

١٣ عن الأب هنري لامنس: آثار لبنان.

– إن اللّه تعالى يحرّم السرقة، يا ولدي. أنسيتم وصايا اللّه: لا تقتل! لا تسرق!

– ولكن اللّه في غيبة، يا جدي. لو لم يكن غائبًا، لما تركهم ينهبون كنيسة السيدة ومار الياس ويحرقون صور القديسين دون أن يتحرك.

دفاع المحامي الصغير أحرج الشيخ فأخذ يحكّ صلعته ثم قال:

– أجوبتك، يا ولدي، هي أكبر منك. إسمع! أتريد أن تلطخ اسم الدامور؟ أتريد أن يشيعوا في كل مكان أن أولاد الدامور سرّاقون! أن أولاد الدامور أوباش يسرقون مضيفيهم... يسرقون قن الدجاج.

احمرّت وجنتا الصبي وأطرق برأسه إلى الأرض.

– إذن عليكم أن تذهبوا فورًا وتعترفوا لأبونا موسى بخطيئتكم وتطلبوا السماح.

– وهل نردّ البيضات؟

– حتمًا. أسرعوا قبل أن يبدأ الجناز. لقد دق جرس الكنيسة دقتين. عند الثالثة تبدأ الصلاة.

عمل الأولاد بوصية جدهم وركضوا نحو غرف الرهبان وما هي إلا دقائق حتى عادوا فرحين مهلّلين لأنّ أبونا موسى سمح لهم بأن يحتفظوا بما غنموه من سرقة القن شرط أن لا يقعوا مرة أخرى في حبال الشيطان. لكن المحامي الصغير عاد يسأل جدّه:

– هل أبونا موسى مسيحي؟

– طبعًا، يا جدي، كيف يكون أبونا وغير مسيحي؟

– ألا يوجد أبونا إلا عند المسيحيين؟

– مبدئيًا لا.

– لكنه قال لنا: «أنتم فلاحون موارنة تسرقون البيض، الحمد للّه لأنّه لم يخلقني مارونيًا». هل يوجد مسيحيون غير موارنة؟

– نعم، يوجد.

– حتى في لبنان؟

– إن اللّه تعالى يحرّم السرقة، يا ولدي. أنسيتم وصايا اللّه: لا تقتل! لا تسرق!

– ولكن اللّه في غيبة، يا جدي. لو لم يكن غائبًا، لما تركهم ينهبون كنيسة السيدة ومار الياس ويحرقون صور القديسين دون أن يتحرك.

دفاع المحامي الصغير أحرج الشيخ فأخذ يحكّ صلعته ثم قال:

– أجوبتك، يا ولدي، هي أكبر منك. إسمع! أتريد أن تلطخ اسم الدامور؟ أتريد أن يشيعوا في كل مكان أن أولاد الدامور سرّاقون! أن أولاد الدامور أوباش يسرقون مضيفيهم... يسرقون قن الدجاج.

احمرّت وجنتا الصبي وأطرق برأسه إلى الأرض.

– إذن عليكم أن تذهبوا فورًا وتعترفوا لأبونا موسى بخطيئتكم وتطلبوا السماح.

– وهل نردّ البيضات؟

– حتمًا. أسرعوا قبل أن يبدأ الجناز. لقد دق جرس الكنيسة دقتين. عند الثالثة تبدأ الصلاة.

عمل الأولاد بوصية جدهم وركضوا نحو غرف الرهبان وما هي إلا دقائق حتى عادوا فرحين مهلّلين لأنّ أبونا موسى سمح لهم بأن يحتفظوا بما غنموه من سرقة القن شرط أن لا يقعوا مرة أخرى في حبال الشيطان. لكن المحامي الصغير عاد يسأل جدّه:

– هل أبونا موسى مسيحي؟

– طبعًا، يا جدي، كيف يكون أبونا وغير مسيحي؟

– ألا يوجد أبونا إلا عند المسيحيين؟

– مبدئيًا لا.

– لكنه قال لنا: «أنتم فلاحون موارنة تسرقون البيض، الحمد للّه لأنّه لم يخلقني مارونيًا». هل يوجد مسيحيون غير موارنة؟

– نعم، يوجد.

– حتى في لبنان؟

– نعم الأعداء. وجودهم بالمواجهة يعطي حياتك زخمًا وطَعمًا.

– ثَمّة مفكرون يرون أن لبنان سيخرج من المحنة وهو يرفل بثوب جديد يبهر الأنظار.

– ولكن من أين يبتاعون القماش؟ أمن سوق سرسق أم من سوق الطويلة ومن يشرف على تفصيل الثوب: أبو سمح أم كريستيان ديور؟ سيختلفون على اختيار التاجر والخياط، لكنهم سيبقون في جوّ السوق. أنا رجل هرم. كل شيء فيَّ يحملني على التشاؤم: سنّي، صحتي، اختباراتي ومزاجي، فاعذرني.

دقّ جرس الكنيسة الدقة الثالثة مؤذنًا ببدء الصلاة، صلاة جمعة الآلام. فأدنى الشيخ قنينة العرق من شفتيه و لم يكن أبقى فيها إلا القليل القليل فأفرغها قائلاً: هذه قطرة النسيان. هيَّا بنا إلى جناز المسيح!

*

– نعم الأعداء. وجودهم بالمواجهة يعطي حياتك زخمًا وطَعمًا.

– ثَمّة مفكرون يرون أن لبنان سيخرج من المحنة وهو يرفل بثوب جديد يبهر الأنظار.

– ولكن من أين يبتاعون القماش؟ أمن سوق سرسق أم من سوق الطويلة ومن يشرف على تفصيل الثوب: أبو سمح أم كريستيان ديور؟ سيختلفون على اختيار التاجر والخياط، لكنهم سيبقون في جوّ السوق. أنا رجل هرم. كل شيء فيَّ يحملني على التشاؤم: سنّي، صحتي، اختباراتي ومزاجي، فاعذرني.

دقّ جرس الكنيسة الدقة الثالثة مؤذنًا ببدء الصلاة، صلاة جمعة الآلام. فأدنى الشيخ قنينة العرق من شفتيه و لم يكن أبقى فيها إلا القليل القليل فأفرغها قائلاً: هذه قطرة النسيان. هيَّا بنا إلى جناز المسيح!

*

الدامور على عهد المعنيين والشهابيين

(١٥٧٢-١٨٤١)

– أول ما ذُكِرَت الدامور في تاريخ الطائفة المارونية اقترن ذكرها بعملية قطع الطريق. إسمع ما يقوله البطريرك اسطفان الدويهي:

«في سنة ١١٦٠ م. (٥٥٦ هـ.) كان زهر الدولة بن بحتر واليًا على ثغر بيروت فولاّه الملك نور الدين صاحب دمشق القنيطرة وجلبايا وقسمًا من وادي التيم وبرج صيدا والدامور والمعاصر ومجدل بعنا وكفرعمّيه ورتب له علائق لأربعين فارسًا لمحاربة الافرنـج وكان أبوه شرف الدولة قاطنًا في عرمون العرب. فربط طريق الدامور على الافرنـج»[١٤].

– يا للعجب! أكُتِب للدامور منذ البدء أن يقترن اسمها بقطع الطريق؟

– نعم، والتنوخيون قد تنبهوا لأهمية هذه البقعة من الناحية الاستراتيجية وهم أول من ربط طريق الدامور[١٥]. فالصليبيون بعد أن طردهم العرب من سواحل الشام ظلوا يحلمون باسترداد ما فقدوه فكانوا يأتون من جزيرتي قبرص ورودس أو من مرافئ إيطاليا وينزلون على شواطئ خلده والدامور حيث كانوا يتحاربون مع العساكر العربية. لذلك قضت الحاجة بتحصين الساحل وتشييد الأبراج لحراسته وقد شُيِّد أحد هذه الأبراج في خلده حيث لا تزال آثاره حتى اليوم، وشُيِّد برج آخر قرب مصب نهر الدامور[١٦] ويقول البطريرك الدويهي في تاريخه:

«في سنة ١٣٠٢ م. (٧٠٢ هـ.) ليلة الأربعاء ثامن جمادي الأول، نزلت الافرنج على نهر الدامور بين صيدا وبيروت فقتل في المعركة فخر الدين عبد الحميد بن جمال الدين التنوخي وأسر أخوه شمس الدين».

وقد ورد ذكر الدامور في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى[١٧].

---

١٤) تاريخ الطائفة المارونية للبطريرك الدويهي.

١٥) طرق لبنان في تلك الأيام كانت كلها «طرقات مكارية» وأول طريق كروسة أنشئت هي طريق بيروت الشام سنة ١٨٥٩.

١٦) ورد ذكر هذا البرج في كثير من الوثائق التاريخية لكني لم أعثر له على أثر.

١٧) «تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى قام بنشره الأب لويس شيخو اليسوعي في مجلة «المشرق».

الصليبية على شواطئ لبنان وكانت الدامور تشملها حمايتهم. عاصمتهم بلدة عَبيه قاعدة الشحّار الغربي. والشحّار يمتد من عَبيه حتى السعديات جنوبًا والناعمه شمالاً وقد بنى التنوخيون على قمة مطيّر عبَيه برجًا لمراقبة الساحل، بناه الأمير بدر الدين بن صَدقه.

من هذه الوقائع يتضح لنا أن الدامور ظلّت، على عهد التنوخيين، محافظة على رسالتها التاريخية وهي أن تقف سدًا بوجه الغزوات فتُربط فيها الطريق وتدور على أرضها المعارك الحاسمة. وفي كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان للشدياق، نقع على الأسطر التالية:

«في سنة ١٤١٣ م. لما قدم الافرنج في مراكبهم إلى الدامور، نهض إليهم من دمشق الملك داود الجركسي فالتقاه الأمير قاسم وسار معه برجاله إلى قتال الافرنج...»

– وماذا تعني كلمة دامور في ذلك الزمن؟

– كانوا يطلقون اسم دامور على النهر وجواره كما كانت العادة على عهد الفينيقيين والبيزنطيين. أما القرية الدامورية فكانت على أغلب الظن تتألف من ثلاثة أو أربعة بيوت وبعض الخيام إلى جانب النهر يقطنها المزارعون العاملون في أرض الأمراء بالإضافة إلى الرجال الموكل إليهم حراسة الشاطئ. والجدير بالذكر أن الأمراء المعنيين قدموا هم أيضًا إلى لبنان(٢٠) ليحاربوا الافرنج بتوجيه من صاحب الشام فتحالفوا وتصاهروا مع التنوخيين واستوطنوا في الشوف:

«ترك الأمير معن وقبيلته سهل البقاع واستوطن في الشوف وكان الشوف في ذلك الزمن مقفرًا وكان التنوخيون يحكمون القسم الغربي من لبنان المقابل لمدينة بيروت فتحالف المعنيون مع آل تنوخ وتصاهروا، فأرسل التنوخيون إلى الأمير معن عمالاً خبيرين بفن البناء فبنوا للأمير ولأصحابه بيوتًا من حجر لأنه لم يكن من الممكن ضرب الخيم في مرتفعات الشوف. وهكذا تخلّت القبيلة عن عادة التنقل واستقرّت ملتحمة بالأرض. ولما انتشر هذا الخبر، أقبل إلى الشوف عدد غفير من المهجرين الذين كانت الافرنج قد احتلت مساكنهم، فأخذت القرى تنبت على أرض الشوف»(٢١).

بجذورها إلى أسرة القاضي التنوخية ومن هذه الجذور آل القاضي في بيصور وفي دير القمر وآل أمين الدين في عبيه وآل ناصر الدين في كفرمتّى.

٢٠) في القرن الثاني عشر الميلادي قدم المعنيون إلى لبنان بتوجيه من طاغاتكين. ومن المفيد ذكره أنه بعد انتصار السلطان سليم على المماليك في معركة مرج دابق تلألأ نجم المعنيين لأنهم ناصروا السلطان بينما انحاز التنوخيون إلى المماليك.

٢١) عن وثيقة محفوظة في وزارة الخارجية الفرنسية نقلها الدكتور عادل اسماعيل في تاريخه.

الصليبية على شواطئ لبنان وكانت الدامور تشملها حمايتهم. عاصمتهم بلدة عَبيه قاعدة الشحّار الغربي. والشحّار يمتد من عَبيه حتى السعديات جنوبًا والناعمه شمالاً وقد بنى التنوخيون على قمة مطيّر عبَيه برجًا لمراقبة الساحل، بناه الأمير بدر الدين بن صَدقه.

من هذه الوقائع يتضح لنا أن الدامور ظلّت، على عهد التنوخيين، محافظة على رسالتها التاريخية وهي أن تقف سدًا بوجه الغزوات فتُربط فيها الطريق وتدور على أرضها المعارك الحاسمة. وفي كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان للشدياق، نقع على الأسطر التالية:

«في سنة ١٤١٣ م. لما قدم الافرنج في مراكبهم إلى الدامور، نهض إليهم من دمشق الملك داود الجركسي فالتقاه الأمير قاسم وسار معه برجاله إلى قتال الافرنج...»

– وماذا تعني كلمة دامور في ذلك الزمن؟

– كانوا يطلقون اسم دامور على النهر وجواره كما كانت العادة على عهد الفينيقيين والبيزنطيين. أما القرية الدامورية فكانت على أغلب الظن تتألف من ثلاثة أو أربعة بيوت وبعض الخيام إلى جانب النهر يقطنها المزارعون العاملون في أرض الأمراء بالإضافة إلى الرجال الموكل إليهم حراسة الشاطئ. والجدير بالذكر أن الأمراء المعنيين قدموا هم أيضًا إلى لبنان[٢٠] ليحاربوا الافرنج بتوجيه من صاحب الشام فتحالفوا وتصاهروا مع التنوخيين واستوطنوا في الشوف:

«ترك الأمير معن وقبيلته سهل البقاع واستوطن في الشوف وكان الشوف في ذلك الزمن مقفرًا وكان التنوخيون يحكمون القسم الغربي من لبنان المقابل لمدينة بيروت فتحالف المعنيون مع آل تنوخ وتصاهروا، فأرسل التنوخيون إلى الأمير معن عمالاً خبيرين بفن البناء فبنوا للأمير ولأصحابه بيوتًا من حجر لأنه لم يكن من الممكن ضرب الخيم في مرتفعات الشوف. وهكذا تخلّت القبيلة عن عادة التنقل واستقرّت ملتحمة بالأرض. ولما انتشر هذا الخبر، أقبل إلى الشوف عدد غفير من المهجرين الذين كانت الافرنج قد احتلت مساكنهم، فأخذت القرى تنبت على أرض الشوف»[٢١].

بجذورها إلى أسرة القاضي التنوخية ومن هذه الجذور آل القاضي في بيصور وفي دير القمر وآل أمين الدين في عبيه وآل ناصر الدين في كفرمتّى.

٢٠) في القرن الثاني عشر الميلادي قدم المعنيون إلى لبنان بتوجيه من طاغاتكين. ومن المفيد ذكره أنه بعد انتصار السلطان سليم على المماليك في معركة مرج دابق تلألأ نجم المعنيين لأنهم ناصروا السلطان بينما انحاز التنوخيون إلى المماليك.

٢١) عن وثيقة محفوظة في وزارة الخارجية الفرنسية نقلها الدكتور عادل اسماعيل في تاريخه.

صغيرة على اسم مار ميخائيل وفي ظلّها عمّروا لهم ولعيالهم بيوتًا متواضعة: هكذا أتت قرية الدامور المارونية إلى الوجوه، بعد أن كانت على عهد التنوخيين مزرعة صغيرة لا يقطنها سوى مزارعي الأمير جمال الدين حجّي وحرس الشواطئ.

*

رافقت القرية الصغيرة حياة الأمير الكبير في السراء والضراء. فبعد انتصار المعنيين على بني سيفا هدم فخر الدين قصور اعدائه في عكار ونقل حجارتها الصفراء الجميلة بحرًا من ميناء طرابلس إلى مصب نهر الدامور ومنه إلى دير القمر حيث بنى بها سراياه الشهيرة.

وفي شباط سنة ١٦١٣، لّما عزمت الدولة العثمانية على كسر شوكة الأمير وجرّدت الجيوش لمقاتلته، جمع الأمير أحزابه ورؤساء العشائر وأعيان البلاد،

«جمعهم في الدامور واستنهضهم للقتال، فرأى فتور عزيمتهم وأن لا رغبة لهم بمناوأة الدولة العثمانية، فعزم على مغادرة لبنان»[٢٢].

لجأ فخر الدين إلى إيطاليا حيث نزل ضيفًا على دوق توسكانا وأثناء وجوده هناك، أقلعت سفينة إيطالية تحمل بعثة غايتها رفع تقرير عن حالة لبنان أثناء غياب الأمير وقد ورد في تقرير رئيس البعثة أن السفينة رست قرب مصب نهر الدامور فنزل الركاب إلى البر وتوجهوا إلى دير القمر لمقابلة الأمير يونس.

«وفي كانون الثاني سنة ١٦١٥ عاد الأمير فخر الدين من إيطاليا لزيارة أهله وإخوانه في لبنان ولما وصلت المراكب إلى ساحل لبنان، ألقت مراسيها على مصب نهر الدامور فنزل منها الشيخ خطار الخازن وتوجه إلى دير القمر ليعلم الأمير يونس بقدوم أخيه فانتشر الخبر في الشوف وعمّ الفرح ونهض جمع غفير إلى الدامور لاستقبال الأمير. وابتدأت القوارب تأتي إلى البر وتأخذ الرجال ليسلموا على زعيمهم. أما هو فلم ينزل إلى البر لأنّ قبطان السفينة عارض بذلك محافظة على حياة الأمير. وطلع إلى السفينة الأمير يونس والأمير منذر والأمير علي الشهابي واجتمعوا بفخر الدين وقصّوا عليه كل ما جرى في غيبته. ثم رفعت المراكب مراسيها وأقلعت راجعة»[٢٣].

– هل كان ثمة مرفأ في الدامور؟

---

٢٢) الدويهي.

٢٣) عن تاريخ الخالدي.

صغيرة على اسم مار ميخائيل وفي ظلّها عمّروا لهم ولعيالهم بيوتًا متواضعة: هكذا أتت قرية الدامور المارونية إلى الوجوه، بعد أن كانت على عهد التنوخيين مزرعة صغيرة لا يقطنها سوى مزارعي الأمير جمال الدين حجّي وحرس الشواطئ.

*

رافقت القرية الصغيرة حياة الأمير الكبير في السراء والضراء. فبعد انتصار المعنيين على بني سيفا هدم فخر الدين قصور اعدائه في عكار ونقل حجارتها الصفراء الجميلة بحرًا من ميناء طرابلس إلى مصب نهر الدامور ومنه إلى دير القمر حيث بنى بها سراياه الشهيرة.

وفي شباط سنة ١٦١٣، لّما عزمت الدولة العثمانية على كسر شوكة الأمير وجرّدت الجيوش لمقاتلته، جمع الأمير أحزابه ورؤساء العشائر وأعيان البلاد،

«جمعهم في الدامور واستنهضهم للقتال، فرأى فتور عزيمتهم وأن لا رغبة لهم بمناوأة الدولة العثمانية، فعزم على مغادرة لبنان»[٢٢].

لجأ فخر الدين إلى إيطاليا حيث نزل ضيفًا على دوق توسكانا وأثناء وجوده هناك، أقلعت سفينة إيطالية تحمل بعثة غايتها رفع تقرير عن حالة لبنان أثناء غياب الأمير وقد ورد في تقرير رئيس البعثة أن السفينة رست قرب مصب نهر الدامور فنزل الركاب إلى البر وتوجهوا إلى دير القمر لمقابلة الأمير يونس.

«وفي كانون الثاني سنة ١٦١٥ عاد الأمير فخر الدين من إيطاليا لزيارة أهله وإخوانه في لبنان ولما وصلت المراكب إلى ساحل لبنان، ألقت مراسيها على مصب نهر الدامور فنزل منها الشيخ خطار الخازن وتوجه إلى دير القمر ليعلم الأمير يونس بقدوم أخيه فانتشر الخبر في الشوف وعمّ الفرح ونهض جمع غفير إلى الدامور لاستقبال الأمير. وابتدأت القوارب تأتي إلى البر وتأخذ الرجال ليسلموا على زعيمهم. أما هو فلم ينزل إلى البر لأنّ قبطان السفينة عارض بذلك محافظة على حياة الأمير. وطلع إلى السفينة الأمير يونس والأمير منذر والأمير علي الشهابي واجتمعوا بفخر الدين وقصّوا عليه كل ما جرى في غيبته. ثم رفعت المراكب مراسيها وأقلعت راجعة»[٢٣].

– هل كان ثمة مرفأ في الدامور؟

---

٢٢) الدويهي.

٢٣) عن تاريخ الخالدي.

– نعم، ويتابع الشيخ أحمد الخالدي قوله:

«وكان قد صار في هذا النهار أربعة حروب بأربعة مواضع: حرب في قرية عبيه وحرب في أغميد وحرب في عنداره، والحرب الكبير على عين الناعمه وفي جميع هذه الحروب صارت النصرة لجانب بيت معن. وفي ثاني يوم رحل الأمير علي والأمير يونس والأمير علي ابن الشهاب من الدامور ونزلوا على نهر بيروت فطلع أهل المدينة إلى الأمير علي وقابلوه فطيَّب خاطرهم وأعطاهم الأمان فحصلت لهم راحة البال والاطمئنان. لكن جعلوا على أنفسهم عشرين ألف غرش فداء لهم ولأولادهم وأرزاقهم. فحوّل الأمير علي عليهم السكمانية لأنهم كانوا طلبوا منه البخشيش فجعل لكل نفر منهم خمسة غروش فأخذوها منهم واما رجال الشوف فإنهم توجهوا إلى بلاد الغرب والجرد والمتن فنهبوها وأخذوا جميع أرزاقها وحرقوها مجازاة لهم على حرقهم بلاد الشوف»[٢٦].

– إذن لا شيء جديد تحت شمس لبنان: معارك وتدمير وحرق القرى ورد كل تحية بأفظع منها... والسعي وراء البخشيش.

– لا شيء جديد تحت شمس لبنان، يا بني، لا شيء جديد ما عدا الأسلحة المتطورة. أما السلب والنهب والتنكيل بالخصم حتى بعد دحره والتدمير والحرق وفرض الخوّة أو البخشيش، فهذا جزء لا يتجزأ من فولكلورنا الوطني.

وقصة الدامور هي هي، اليوم مثل البارحة وغدًا مثل اليوم، فبحكم موقعها الاستراتيجي، يتحتّم عليها أن تساهم في كل حروب المنطقة وأن تتحمل القسط الأوفر مما تجرّه الحروب من ويلات وخراب فهي مفتاح النصر أو الهزيمة والاستيلاء عليها يتيح للغازي الآتي من الشمال أن يجتاح صيدا والجنوب دون كبير عناء، كما يتيح للزاحفين من الجنوب أن يطرقوا أبواب بيروت ويغزوا الشمال، سواء أكان اسم الفاتح رعمسيس فرعون مصر، أم انطيوخوس الكبير ملك سوريا، أم يونس المعني أمير لبنان.

– إن صحّ أنه كُتِب على جبين الدامور أن تشاهد مجازر كثيرة وأن يتخضب ترابها بدماء الشعوب على ممر العصور، فأعتقد أني سأسبقك على حلّ اللغز.

– أي لغز؟

– لغز أصل الكلمة.

---

٢٦) الخالدي، تاريخ لبنان في عهد فخر الدين الثاني.

– نعم، ويتابع الشيخ أحمد الخالدي قوله:

«وكان قد صار في هذا النهار أربعة حروب بأربعة مواضع: حرب في قرية عبيه وحرب في أغميد وحرب في عنداره، والحرب الكبير على عين الناعمه وفي جميع هذه الحروب صارت النصرة لجانب بيت معن. وفي ثاني يوم رحل الأمير علي والأمير يونس والأمير علي ابن الشهاب من الدامور ونزلوا على نهر بيروت فطلع أهل المدينة إلى الأمير علي وقابلوه فطيَّب خاطرهم وأعطاهم الأمان فحصلت لهم راحة البال والاطمئنان. لكن جعلوا على أنفسهم عشرين ألف غرش فداء لهم ولأولادهم وأرزاقهم. فحوّل الأمير علي عليهم السكمانية لأنهم كانوا طلبوا منه البخشيش فجعل لكل نفر منهم خمسة غروش فأخذوها منهم واما رجال الشوف فإنهم توجهوا إلى بلاد الغرب والجرد والمتن فنهبوها وأخذوا جميع أرزاقها وحرقوها مجازاة لهم على حرقهم بلاد الشوف»[٢٦].

– إذن لا شيء جديد تحت شمس لبنان: معارك وتدمير وحرق القرى ورد كل تحية بأفظع منها... والسعي وراء البخشيش.

– لا شيء جديد تحت شمس لبنان، يا بني، لا شيء جديد ما عدا الأسلحة المتطورة. أما السلب والنهب والتنكيل بالخصم حتى بعد دحره والتدمير والحرق وفرض الخوّة أو البخشيش، فهذا جزء لا يتجزأ من فولكلورنا الوطني.

وقصة الدامور هي هي، اليوم مثل البارحة وغدًا مثل اليوم، فبحكم موقعها الاستراتيجي، يتحتّم عليها أن تساهم في كل حروب المنطقة وأن تتحمل القسط الأوفر مما تجرّه الحروب من ويلات وخراب فهي مفتاح النصر أو الهزيمة والاستيلاء عليها يتيح للغازي الآتي من الشمال أن يجتاح صيدا والجنوب دون كبير عناء، كما يتيح للزاحفين من الجنوب أن يطرقوا أبواب بيروت ويغزوا الشمال، سواء أكان اسم الفاتح رعمسيس فرعون مصر، أم انطيوخوس الكبير ملك سوريا، أم يونس المعني أمير لبنان.

– إن صحّ أنه كُتِب على جبين الدامور أن تشاهد مجازر كثيرة وأن يتخضب ترابها بدماء الشعوب على ممر العصور، فأعتقد أني سأسبقك على حلّ اللغز.

– أي لغز؟

– لغز أصل الكلمة.

---

٢٦) الخالدي، تاريخ لبنان في عهد فخر الدين الثاني.

مؤلف من غرفة أو غرفتين تبنيه وتسقفه بجسور خشبية فتصبح أنت وعائلتك خاصًا بالأمير تدفع له كل سنة «مال عنقك». وكان للأمراء والمشايخ حق المصادرة و«البلص» يفرضون على أهل مقاطعاتهم الغرامة التي يستنسبونها لسد نفقاتهم ونفقات جنودهم. وبالرغم من كل تفننهم بأمور البلص، كانت النفقات تفوق الواردات فأخذ الإقطاعيون يبيعون قطعًا من أرضهم للعامة وأخذت بعض الأسر المارونية تشتري منهم قطع أرض في منطقة الدامور.

«ولما تولى الحكم الأمير منصور حيدر الشهابي (١٧٥٣–١٧٧٠) جرّ من نهر الدامور قناة تسقي البساتين إلى الجانب الشمالي منه»[٢٩].

حينئذ بدأت الدامور تنمو شمالاً ما بين الساقية المسمّاة «نهر بو دمعه» والوادي الصغير الفاصل ما بين الدامور وحارة الناعمه وأطلق على هذه القرية الجديدة اسم «معلقة الدامور». وفي سنة ١٧٦٧ حدث زلزال[٣٠] وخسفت الأرض بقرب نهر الصفا فطمر الخسوف قرى بكاملها وحبس الردم نهر الصفا عن مجراه عدة أيام ونهر الصفا هو، كما تعلم، المموّل الرئيسي لنهر الدامور.

– لكنك لم تقل لي ما هو المورد الذي كان يعتمد عليه الداموريون لكسب لقمة العيش قبل جرّ القناة إلى السهل؟

– لقد استنبطوا موردًا من الصعب أن يخطر على بالك، لكنه ينبع من الروح اللبنانية الأصيلة، ألا وهو الاحتيال المشروع:«dolus bonus» في لغة الشرع الروماني. كانوا يساعدون المسافرين على اجتياز النهر ويحتالون عليهم لينتزعوا منهم أجرة وافرة. أما تساءلت: كيف كان المسافرون يقطعون نهر الدامور قبل أن بُنيَ عليه جسر؟ إسمع ما يقوله المعلم ابراهيم العودة في تاريخه لولاية سليمان باشا:

«إن أهالي الدامور والمعلقة الذين هم بالقرب من النهر، في أيام الشتاء غالب أهاليهم ينزلوا ويستقيموا دائمًا على شاطئ النهر المذكور لأجل تقطيع المارين والعابرين وأخذ الأجرة الوافرة منهم. ولأجل جرّ منافعهم يستعملون الملعنة بعملهم، وذلك انهم يحملون الشخص الذي يريدون يقطعوا به النهر ولا يسيرون في المحلات الهينة التي تكون فيها المياه خفيفة، بل يسيرون في محلات عمق المياه، وهم يعرفون أراضي النهر

---

٢٩) أخبار الأعيان للشدياق.

٣٠) ويذكر التاريخ حدوث هزات هائلة سنة ١٧٥٩ استقامت نحو عشر دقائق ونتج عنها خراب عظيم وسقوط قسم من قلعة بعلبك.

مؤلف من غرفة أو غرفتين تبنيه وتسقفه بجسور خشبية فتصبح أنت وعائلتك خاصًا بالأمير تدفع له كل سنة «مال عنقك». وكان للأمراء والمشايخ حق المصادرة و«البلص» يفرضون على أهل مقاطعاتهم الغرامة التي يستنسبونها لسد نفقاتهم ونفقات جنودهم. وبالرغم من كل تفننهم بأمور البلص، كانت النفقات تفوق الواردات فأخذ الإقطاعيون يبيعون قطعًا من أرضهم للعامة وأخذت بعض الأسر المارونية تشتري منهم قطع أرض في منطقة الدامور.

«ولما تولى الحكم الأمير منصور حيدر الشهابي (١٧٥٣–١٧٧٠) جرّ من نهر الدامور قناة تسقي البساتين إلى الجانب الشمالي منه»[٢٩].

حينئذ بدأت الدامور تنمو شمالاً ما بين الساقية المسمّاة «نهر بو دمعه» والوادي الصغير الفاصل ما بين الدامور وحارة الناعمه وأطلق على هذه القرية الجديدة اسم «معلقة الدامور». وفي سنة ١٧٦٧ حدث زلزال[٣٠] وخسفت الأرض بقرب نهر الصفا فطمر الخسوف قرى بكاملها وحبس الردم نهر الصفا عن مجراه عدة أيام ونهر الصفا هو، كما تعلم، المموّل الرئيسي لنهر الدامور.

– لكنك لم تقل لي ما هو المورد الذي كان يعتمد عليه الداموريون لكسب لقمة العيش قبل جرّ القناة إلى السهل؟

– لقد استنبطوا موردًا من الصعب أن يخطر على بالك، لكنه ينبع من الروح اللبنانية الأصيلة، ألا وهو الاحتيال المشروع:«dolus bonus» في لغة الشرع الروماني. كانوا يساعدون المسافرين على اجتياز النهر ويحتالون عليهم لينتزعوا منهم أجرة وافرة. أما تساءلت: كيف كان المسافرون يقطعون نهر الدامور قبل أن بُنيَ عليه جسر؟ إسمع ما يقوله المعلم ابراهيم العودة في تاريخه لولاية سليمان باشا:

«إن أهالي الدامور والمعلقة الذين هم بالقرب من النهر، في أيام الشتاء غالب أهاليهم ينزلوا ويستقيموا دايمًا على شاطئ النهر المذكور لأجل تقطيع المارين والعابرين وأخذ الأجرة الوافرة منهم. ولأجل جرّ منافعهم يستعملون الملعنة بعملهم، وذلك انهم يحملون الشخص الذي يريدون يقطعوا به النهر ولا يسيرون في المحلات الهينة التي تكون فيها المياه خفيفة، بل يسيرون في محلات عمق المياه، وهم يعرفون أراضي النهر

٢٩) أخبار الأعيان للشدياق.

٣٠) ويذكر التاريخ حدوث هزات هائلة سنة ١٧٥٩ استقامت نحو عشر دقائق ونتج عنها خراب عظيم وسقوط قسم من قلعة بعلبك.

– ربما.

– أما لاحظت شيئًا غريبًا؟

– لا. لم ألاحظ شيئًا غريبًا.

– أما لفت نظرك وجه التشابه بين القديسين؟

– وجه التشابه؟ دعني أفكر قليلاً... ربما تريد القول ان الاثنين يشهران سيفًا؟

– أحسنت! ان الاثنين مجاهدان يشهران سيفيهما بوجه الشر ويوفقان بين القداسة والبطش بالعدو. أتعتقد أنّ اختيار الداموريين لهكذا شفاعة كان وليد الصدفة.

– هذا ما أظنه. وأنت؟

– أما أنا فأرى في هذا الاختيار تعبيرًا عن حاجة في النفس. إن الأحداث التي شهدتها وعاشتها الدامور عند نشوئها كانت مأسوية: فبعد انقراض المعنيين، أخذت عساكر الأكراد بدعوة من الجزّار تعبث في البلاد وتهاجم القرى اللبنانية فتقتل وتغتصب وتنهب وتحرق... والنكبات تتوالى على البلاد من زلازل وهزّات إلى غزوات الجراد إلى تفشّي داء الطاعون. ولعل النكبة الكبرى كانت انقسام الإقطاعيين إلى أحزاب وفرق تتنابذ وتتحارب فتمزّق البلاد وتنشر الفوضى. فلا تكاد تمر سنة إلا ويهرع اللبنانيون لمقاتلة بعضهم بعضًا، منقادين انقيادًا بهيميًا وراء زعماء تقليديين دأبهم الفتك والنهب والتحاسد وهمهم الاحتفاظ بالنفوذ والجاه والثروة لهم ولأبنائهم من بعدهم. والفلاح اللبناني شأنه شأن الأرض التي يعاملها فهو شيء لا شخص، شيء يخص صاحب المقاطعة ويسوقه أميره أو شيخه إلى الحرب سوقًا، بضرب الكرباج إذا اقتضى الأمر فانتماؤه إلى الأسرة الإقطاعية المولاّة على بلده كان يحجب انتماءه إلى الوطن. أما الداموري فهو من طبعه لا يحب القتال، لا يحب القتال لسببين: الأول لأنه يحبّ الأرض ويحبّ الحياة وقد أتى إلى هذه البقعة الساحلية ليحيي أرضًا ميتة، يُحييها بعرقه وبمياه الاله دامور، لا بدماء أبناء الناس وأبنائه. والثاني لأنه ماروني نزح إلى مقاطعة درزية يتولى عليها المشايخ النكدية فما له وللحرب؟ إنما في هذا الجو المشحون بالاضطرابات والنكبات، لا بدّ له من شفاعة بعض المحاربين: شفاعة سماوية يتولاها مار ميخائيل ومار الياس شاهري السيوف وشفاعة أرضية يؤمنها مشايخ بني معروف والحق يقال ان المشايخ النكدية كانوا يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن حماية الدامور وكانوا يتحسّسون عِظَم مسؤوليتهم

– ربما.

– أما لاحظت شيئًا غريبًا؟

– لا. لم ألاحظ شيئًا غريبًا.

– أما لفت نظرك وجه التشابه بين القديسين؟

– وجه التشابه؟ دعني أفكر قليلاً... ربما تريد القول ان الاثنين يشهران سيفًا؟

– أحسنت! ان الاثنين مجاهدان يشهران سيفيهما بوجه الشر ويوفقان بين القداسة والبطش بالعدو. أتعتقد أنّ اختيار الداموريين لهكذا شفاعة كان وليد الصدفة.

– هذا ما أظنه. وأنت؟

– أما أنا فأرى في هذا الاختيار تعبيرًا عن حاجة في النفس. إن الأحداث التي شهدتها وعاشتها الدامور عند نشوئها كانت مأسوية: فبعد انقراض المعنيين، أخذت عساكر الأكراد بدعوة من الجزّار تعبث في البلاد وتهاجم القرى اللبنانية فتقتل وتغتصب وتنهب وتحرق... والنكبات تتوالى على البلاد من زلازل وهزّات إلى غزوات الجراد إلى تفشّي داء الطاعون. ولعل النكبة الكبرى كانت انقسام الإقطاعيين إلى أحزاب وفرق تتنابذ وتتحارب فتمزّق البلاد وتنشر الفوضى. فلا تكاد تمر سنة إلا ويهرع اللبنانيون لمقاتلة بعضهم بعضًا، منقادين انقيادًا بهيميًا وراء زعماء تقليديين دأبهم الفتك والنهب والتحاسد وهمهم الاحتفاظ بالنفوذ والجاه والثروة لهم ولأبنائهم من بعدهم. والفلاح اللبناني شأنه شأن الأرض التي يعاملها فهو شيء لا شخص، شيء يخص صاحب المقاطعة ويسوقه أميره أو شيخه إلى الحرب سوقًا، بضرب الكرباج إذا اقتضى الأمر فانتماؤه إلى الأسرة الإقطاعية المولاّة على بلده كان يحجب انتماءه إلى الوطن. أما الداموري فهو من طبعه لا يحب القتال، لا يحب القتال لسببين: الأول لأنه يحبّ الأرض ويحبّ الحياة وقد أتى إلى هذه البقعة الساحلية ليحيي أرضًا ميتة، يُحييها بعرقه وبمياه الاله دامور، لا بدماء أبناء الناس وأبنائه. والثاني لأنه ماروني نزح إلى مقاطعة درزية يتولى عليها المشايخ النكدية فما له وللحرب؟ إنما في هذا الجو المشحون بالاضطرابات والنكبات، لا بدّ له من شفاعة بعض المحاربين: شفاعة سماوية يتولاها مار ميخائيل ومار الياس شاهري السيوف وشفاعة أرضية يؤمنها مشايخ بني معروف والحق يقال ان المشايخ النكدية كانوا يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن حماية الدامور وكانوا يتحسّسون عِظَم مسؤوليتهم

وعندما أقبل الارناوط عليهم ثاروا بوجوههم وأشعلوا نار الحرب فقتل من الارناوط نحو مائتي رجل»[٣٥].

وفي أوائل القرن التاسع عشر على عهد الأمير بشير الكبير، كان الأمراء من آل شهاب وآل ارسلان والمشايخ النكدية لا يزالون يملكون أرضًا وبيوتًا للسكن في الدامور وقد وقعت سنة ١٨١٨ جريمة مروعة في المعلقة بطلها أحد الشهابيين:

«في سنة ١٢٣٤ هـ. أي ١٨١٨ م.، في شهر نيسان توجه الأمير حمود والأمير حيدر ولدا الأمير منصور شهاب إلى قرية المعلقة التي في الدامور، فسار إليهم الأمير حسن ولد الأمير حمود ومعه سبعة أنفار من أتباعه وبحال وصوله إلى عند والده ترحَّب به وأكرمه. وأما هو فكان خاطر في نفسه الخيانة والغدر بقتل والده وإخوته وعمه ولم يكن أسباب توجب لذلك. ومن بعد جلوسه عند والده وعمه، أطلق القرابينا على غفلة على عمّه، فلم تصب منه سوى رجله. فخرج هاربًا إلى خارج البيت فأرموا عليه الرصاص وقتلوه. أما الأمير حمود، عند نهوضه، ضربه ولده الأمير حسن بسكين في صدره وقوسه أحد الأتباع فقتل. وعندما كانوا منشغلين بقتلهم، هربوا أولادهم واختفوا في بعض بيوت القرية... أما الأمير حسن وأتباعه فركبوا الخيل وهربوا قاصدين بلاد حوران»[٣٦].

– يا لسخرية القدر! دماء ولدَي الأمير منصور تسفك على أرض الدامور وهو أول من جرَّ لها الماء لتسقي سهلها!

– لا تقل: سهلها، بل: سهلهم، فأرض السهل في ذلك الزمن لم تكن ملك أهالي البلدة بل ملك الأمراء والمشايخ وكان أجدادنا يعملون فلاحين عندهم. ونحن أولاد هؤلاء الفلاحين تحولنا إلى بورجوازيين صغار بحكم دينامية التاريخ.

– صحيح، ولكن كيف يعقل أن يغدر هذا الأمير الشاب بوالده وبعمه دون سبب موجب. لا أستطيع أن أصدق المؤرخ.

ابتسم الشيخ ابتسامته الكئيبة المعتادة وأجاب:

– يا بني، أنت أستاذ وربما دكتور في مادة ما. لكن تعليقاتك تبدو لي أحيانًا بمنتهى السذاجة. لا تستهجن شيئًا ولا تسل عن سبب موجب ولا تقل كيف يعقل. فالتاريخ لا يسيِّره العقل، إنما الأهواء والمصالح والصدف. أيعقل أن ينقسم أعيان لبنان إلى قيسي

---

٣٥) المصدر نفسه.

٣٦) تاريخ لبنان للأمير حيدر شهاب.

وعندما أقبل الارناوط عليهم ثاروا بوجوههم وأشعلوا نار الحرب فقتل من الارناوط نحو مائتي رجل»[٣٥].

وفي أوائل القرن التاسع عشر على عهد الأمير بشير الكبير، كان الأمراء من آل شهاب وآل ارسلان والمشايخ النكدية لا يزالون يملكون أرضًا وبيوتًا للسكن في الدامور وقد وقعت سنة ١٨١٨ جريمة مروعة في المعلقة بطلها أحد الشهابيين:

«في سنة ١٢٣٤ هـ. أي ١٨١٨ م.، في شهر نيسان توجه الأمير حمود والأمير حيدر ولدا الأمير منصور شهاب إلى قرية المعلقة التي في الدامور، فسار إليهم الأمير حسن ولد الأمير حمود ومعه سبعة أنفار من أتباعه وبحال وصوله إلى عند والده ترحَّب به وأكرمه. وأما هو فكان خاطر في نفسه الخيانة والغدر بقتل والده وإخوته وعمه ولم يكن أسباب توجب لذلك. ومن بعد جلوسه عند والده وعمه، أطلق القرابينا على غفلة على عمّه، فلم تصب منه سوى رجله. فخرج هاربًا إلى خارج البيت فأرموا عليه الرصاص وقتلوه. أما الأمير حمود، عند نهوضه، ضربه ولده الأمير حسن بسكين في صدره وقوسه أحد الأتباع فقتل. وعندما كانوا منشغلين بقتلهم، هربوا أولادهم واختفوا في بعض بيوت القرية... أما الأمير حسن وأتباعه فركبوا الخيل وهربوا قاصدين بلاد حوران»[٣٦].

– يا لسخرية القدر! دماء ولدَي الأمير منصور تسفك على أرض الدامور وهو أول من جرَّ لها الماء لتسقي سهلها!

– لا تقل: سهلها، بل: سهلهم، فأرض السهل في ذلك الزمن لم تكن ملك أهالي البلدة بل ملك الأمراء والمشايخ وكان أجدادنا يعملون فلاحين عندهم. ونحن أولاد هؤلاء الفلاحين تحولنا إلى بورجوازيين صغار بحكم دينامية التاريخ.

– صحيح، ولكن كيف يعقل أن يغدر هذا الأمير الشاب بوالده وبعمه دون سبب موجب. لا أستطيع أن أصدق المؤرخ.

ابتسم الشيخ ابتسامته الكئيبة المعتادة وأجاب:

– يا بني، أنت أستاذ وربما دكتور في مادة ما. لكن تعليقاتك تبدو لي أحيانًا بمنتهى السذاجة. لا تستهجن شيئًا ولا تسل عن سبب موجب ولا تقل كيف يعقل. فالتاريخ لا يسيِّره العقل، إنما الأهواء والمصالح والصدف. أيعقل أن ينقسم أعيان لبنان إلى قيسي

---

٣٥) المصدر نفسه.

٣٦) تاريخ لبنان للأمير حيدر شهاب.

– وما هي البطولات التي سجلها جدودنا؟ لم ترنا منها سوى أنهم كانوا يقطّعون المارّة عند وصولهم إلى النهر و«يزعبرون» عليهم...

فقلت ضاحكًا:

– إنّ حفيدك على حق، يا شيخي. أين البطولات وما هي الملحمة؟ لم تذكر لنا من أعمال الداموريين الأوائل شيئًا يُشتمّ منه رائحة البطولة.

أجاب الشيخ:

– إنّ أولى بطولاتهم هي إقدامهم على السكن في تلك البقعة الساحلية المعزولة المعرّضة منذ القديم لهول المعارك ثم تكمّشهم بتلك الأرض رغم البلايا والنكبات والمعارك التي توالت على المنطقة ومثابرتهم على تحويل المستنقعات والأدغال إلى بساتين زاهية زاهرة. فمنذ أن جرَّ الأمير منصور قناة لريّ السهل، انصرف الداموريون بكل حيويتهم إلى أعمال الزراعة، وأولها زراعة التوت وتربية دود القزّ. لقد سبق وقلنا ان فخر الدين المعني وجَّه عناية خاصة إلى زراعة التوت وصناعة الحرير فما لبث الداموري أن صار من أمهر مربّي دودة الحرير وأكبر دليل على ذلك أنّ محمّد علي باشا، لما أراد إدخال تربية القزّ في بعض نواحي مصر، استقدم قزازين(*) من الدامور ومن برج البراجنة. وكان فخر الدين قد شجَّع أيضًا زراعة قصب السكر فما لبث سهل الدامور أن أعطى أجود نوع من القصب السكري حتى ان الباعة لا يزالون في أيامنا هذه ينادون: «داموري يا قصب!» ترويجًا لبضاعتهم. وهكذا يتضح لنا أن الداموري كان دائمًا في الطليعة، لا يرضى لنفسه في كل عمل يباشره إلا أن يتبوّأ المرتبة الأولى. وقد اكتسب بنشاطه وجودة إنتاجه تقدير المشايخ النكدية والأمراء الشهابيين والارسلانيين. ولو قابلنا بين وضع الفلاح الماروني في المقاطعات المارونية وبين وضعه في الدامور لاتضح لنا أنّ وضعه في الدامور كان أفضل من وضعه هناك: ففي كسروان والمتن مثلاً كانت ملكية الأرض والبيوت تعود في غالب الأحيان إلى المشايخ من آل الخازن وحبيش والدحداح وغيرهم وكان على الفلاح أن يركع ويقبل يد شيخه وأن يقدم له الهدايا والخدمات الكثيرة على سبيل السخرة عدا ما يترتب عليه من ضرائب فكان يشعر بأن المشايخ يستثمرونه ويستعبدونه ويحتقرونه، ما أدى إلى عامية انطلياس وثورة طانيوس شاهين الشهيرة. أما

*) مُربّي دودَ القزّ

– وما هي البطولات التي سجلها جدودنا؟ لم ترِنا منها سوى أنهم كانوا يقطّعون المارّة عند وصولهم إلى النهر و«يزعبرون» عليهم...

فقلت ضاحكًا:

– إنّ حفيدك على حق، يا شيخي. أين البطولات وما هي الملحمة؟ لم تذكر لنا من أعمال الداموريين الأوائل شيئًا يُشتمّ منه رائحة البطولة.

أجاب الشيخ:

– إنّ أولى بطولاتهم هي إقدامهم على السكن في تلك البقعة الساحلية المعزولة المعرّضة منذ القديم لهول المعارك ثم تكمّشهم بتلك الأرض رغم البلايا والنكبات والمعارك التي توالت على المنطقة ومثابرتهم على تحويل المستنقعات والأدغال إلى بساتين زاهية زاهرة. فمنذ أن جرَّ الأمير منصور قناة لريّ السهل، انصرف الداموريون بكل حيويتهم إلى أعمال الزراعة، وأولها زراعة التوت وتربية دود القزّ. لقد سبق وقلنا ان فخر الدين المعني وجَّه عناية خاصة إلى زراعة التوت وصناعة الحرير فما لبث الداموري أن صار من أمهر مربّي دودة الحرير وأكبر دليل على ذلك أنّ محمّد علي باشا، لما أراد إدخال تربية القزّ في بعض نواحي مصر، استقدم قزازين(*) من الدامور ومن برج البراجنة. وكان فخر الدين قد شجَّع أيضًا زراعة قصب السكر فما لبث سهل الدامور أن أعطى أجود نوع من القصب السكري حتى ان الباعة لا يزالون في أيامنا هذه ينادون: «داموري يا قصب!» ترويجًا لبضاعتهم. وهكذا يتضح لنا أن الداموري كان دائمًا في الطليعة، لا يرضى لنفسه في كل عمل يباشره إلا أن يتبوّأ المرتبة الأولى. وقد اكتسب بنشاطه وجودة إنتاجه تقدير المشايخ النكدية والأمراء الشهابيين والارسلانيين. ولو قابلنا بين وضع الفلاح الماروني في المقاطعات المارونية وبين وضعه في الدامور لاتضح لنا أنّ وضعه في الدامور كان أفضل من وضعه هناك: ففي كسروان والمتن مثلاً كانت ملكية الأرض والبيوت تعود في غالب الأحيان إلى المشايخ من آل الخازن وحبيش والدحداح وغيرهم وكان على الفلاح أن يركع ويقبل يد شيخه وأن يقدم له الهدايا والخدمات الكثيرة على سبيل السخرة عدا ما يترتب عليه من ضرائب فكان يشعر بأن المشايخ يستثمرونه ويستعبدونه ويحتقرونه، ما أدى إلى عامية انطلياس وثورة طانيوس شاهين الشهيرة. أما

*) مُربّي دودَ القزّ

والحق يقال ان عملهم هذا جدير بالتقدير والإعجاب فطرقات لبنان كانت في تلك الأيام في حالة يرثى لها: كلها «طرقات مكارية» كما تقول العامّة وكان المسافر في فصل الشتاء ما بين صيدا وبيروت يعاني الأهوال من كثرة الأوحال وتدفّق السيول والهول الأكبر كان عبور نهر الدامور. فهذا النهر كان في القديم أشرس وأقوى بكثير مما هو اليوم والدلالة على ذلك متوفرة يكفينا منها شهادة المؤرخ الذي اتهم الداموريين الأوائل «بالملعنة» وبالتحايل على المسافرين فهو يعترف في الفصل ذاته انه «لا تمضي شتوية إلا ويغرق في ذلك النهر جملة خلائق بسبب عظم حملاته وشدة قوة مياهه... بما انه نهر كبير تنصب فيه جملة عيون فينزل بقوة عظيمة من الجبل... ويحصل منه للعابرين أذيات بليغة...»

فلو قُدِّر لي أن أعيش في ذلك العهد وأن أشارك أجدادنا في عملية تقطيع المارّة لأوقفت ابراهيم العودة عند وصوله إلى نهر الدامور متوجِّهًا إلى بيته الدافئ في صيدا وأجبرته على الترجل وعلى الغوص معنا في النهر والمطر ينهمر علينا والصقيع يكاد يجمِّد الدم في عروقنا والمياه المندفعة بسرعة جنونية تكاد تجرفنا مع التيار لعلّه ارتدَّ إلى الهدى وقدَّر حق قدرها بطولة هؤلاء الفلاحين الذين يجازفون بحياتهم ويركبون الأهوال خدمة للعابرين.

ومن بطولة أجدادنا تجنّبهم الانجراف في التحزبات البغيضة التي كانت تمزّق البلاد في تلك الحقبة. فابتداء من سنة ١٧٦٢ انقسم أعيان البلاد إلى حزبين متناظرين: جنبلاطي ويزبكي[٤٢] وكان الأمير منصور الذي جرّ قناة الري للدامور يناصر علي جنبلاط بينما أخوه الأمير أحمد شهاب كان يناصر عبد السلام العماد زعيم اليزبكيين

«هذه نسخة جواب كتبه ناصر الدين الحسين عن مرسوم ورد عليه من نائب الشام، المدعو طغن دمر، سنة ١٣٤٤ م. يتضمن الأمر بعمارة جسر نهر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت، لما يقاسي السفّارة فيه من المشقّة والعطب... وفي إصلاح هذا الجسر حسنة عظيمة ساقها اللّه تعالى لتُسَطّر في صحائف مولانا ملك الأمراء.. و لم يبقَ في السواحل نهر مثل هذا النهر بغير جسر ويمرّ عليه كثيرون من الجبليّين إلى حَدّ البقاع.

وكان الأمير سجر الشجاعي رسم للدمياطي الذي تولّى صيدا وبيروت في أول الفتوح الأشرفي، بأن يُنشئ على نهر الدامور جسرًا. وكان الشجاعي عايَن مشقّته وهو عابر إلى بيروت. فلما عمَّره الدمياطي، أقام الجسر سنتين وفي الثالثة أخذه السَيل وبقي خرابًا إلى أن رسمه المرحوم سيف الدين تنكز بعمارته فعُمِّر و لم يبقَ إلا بعض الشتاء فسقط من السيول وحمل الماء بعض حجارته إلى البحر. فسقوطه من جانب القبلي كان في المرّتين لضعف الأساس ومنع الماء عن تعميقه إلى الصخر كما في الجهة الشمالية...»

في هذه الصفحة من تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، تبرئة من الاتهامات التي وجّهها ابراهيم العودة إلى الداموريين في قوله ان الداموريين ساعدوا النهر على هدم الجسر.

٤٢) جنبلاطي نسبة إلى آل جنبلاط، ويزبكي نسبة إلى آل العماد من سلالة يزبك بن العفيف.

والحق يقال ان عملهم هذا جدير بالتقدير والإعجاب فطرقات لبنان كانت في تلك الأيام في حالة يرثى لها: كلها «طرقات مكارية» كما تقول العامّة وكان المسافر في فصل الشتاء ما بين صيدا وبيروت يعاني الأهوال من كثرة الأوحال وتدفّق السيول والهول الأكبر كان عبور نهر الدامور. فهذا النهر كان في القديم أشرس وأقوى بكثير مما هو اليوم والدلالة على ذلك متوفرة يكفينا منها شهادة المؤرخ الذي اتهم الداموريين الأوائل «بالملعنة» وبالتحايل على المسافرين فهو يعترف في الفصل ذاته انه «لا تمضي شتوية إلا ويغرق في ذلك النهر جملة خلائق بسبب عظم حملاته وشدة قوة مياهه... بما انه نهر كبير تنصب فيه جملة عيون فينزل بقوة عظيمة من الجبل... ويحصل منه للعابرين أذيات بليغة...»

فلو قُدِّر لي أن أعيش في ذلك العهد وأن أشارك أجدادنا في عملية تقطيع المارّة لأوقفت ابراهيم العودة عند وصوله إلى نهر الدامور متوجِّهًا إلى بيته الدافئ في صيدا وأجبرته على الترجل وعلى الغوص معنا في النهر والمطر ينهمر علينا والصقيع يكاد يجمِّد الدم في عروقنا والمياه المندفعة بسرعة جنونية تكاد تجرفنا مع التيار لعلّه ارتدَّ إلى الهدى وقدَّر حق قدرها بطولة هؤلاء الفلاحين الذين يجازفون بحياتهم ويركبون الأهوال خدمة للعابرين.

ومن بطولة أجدادنا تجنّبهم الانجراف في التحزبات البغيضة التي كانت تمزّق البلاد في تلك الحقبة. فابتداء من سنة ١٧٦٢ انقسم أعيان البلاد إلى حزبين متناظرين: جنبلاطي ويزبكي[٤٢] وكان الأمير منصور الذي جرّ قناة الري للدامور يناصر علي جنبلاط بينما أخوه الأمير أحمد شهاب كان يناصر عبد السلام العماد زعيم اليزبكيين

«هذه نسخة جواب كتبه ناصر الدين الحسين عن مرسوم ورد عليه من نائب الشام، المدعو طغن دمر، سنة ١٣٤٤ م. يتضمن الأمر بعمارة جسر نهر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت، لما يقاسي السفّارة فيه من المشقّة والعطب... وفي إصلاح هذا الجسر حسنة عظيمة ساقها اللّه تعالى لتُسَطَّر في صحائف مولانا ملك الأمراء.. و لم يبقَ في السواحل نهر مثل هذا النهر بغير جسر ويمرّ عليه كثيرون من الجبليّين إلى حَدّ البقاع.

وكان الأمير سجر الشجاعي رسم للدمياطي الذي تولّى صيدا وبيروت في أول الفتوح الأشرفي، بأن يُنشئ على نهر الدامور جسرًا. وكان الشجاعي عايَن مشقّته وهو عابر إلى بيروت. فلما عمّره الدمياطي، أقام الجسر سنتين وفي الثالثة أخذه السَيل وبقي خرابًا إلى أن رسمه المرحوم سيف الدين تنكز بعمارته فعُمِّر و لم يبقَ إلا بعض الشتاء فسقط من السيول وحمل الماء بعض حجارته إلى البحر. فسقوطه من جانب القبلي كان في المرّتين لضعف الأساس ومنع الماء عن تعميقه إلى الصخر كما في الجهة الشمالية...»

في هذه الصفحة من تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، تبرئة من الاتهامات التي وجّهها ابراهيم العودة إلى الداموريين في قوله ان الداموريين ساعدوا النهر على هدم الجسر.

٤٢) جنبلاطي نسبة إلى آل جنبلاط، ويزبكي نسبة إلى آل العماد من سلالة يزبك بن العفيف.

الإعجاب بنابليون بونابرت وكانوا يرون فيه تجسيدًا لانتصار الثورة الفرنسية المنادية بالحرية والمساواة والأخوّة وقد عظم شأنه عندهم وزاد تحمسهم لبطولاته عندما دحر عساكر المماليك في موقعة الأهرام الشهيرة[٤٣]. من ذلك الحين صارت أخبار نابليون أكثر رواجًا في سهرات الشتاء من قصص عنتر وبني هلال وبات طيف هذا العملاق الأسطوري يلازم خيال الداموريين... ها هو يقترب من شواطئ لبنان. من يعلم؟ ربما رأيناه ينزل بجيوشه المظفرة على رمال خلده والدامور حاملاً مشعل الحرية فيحرّرنا من الاستعمار العثماني ومن نظام الإقطاع. أحلام جميلة ومثيرة، لكنها ما لبثت أن تبخّرت عندما حلّت الفاجعة واندحر نابليون في موقعة واترلو. وما ان وصل خبر الهزيمة لآذان الداموريين وتيقّنوا أنّ بطلهم المحبوب، بطل الثورة المنادية بالحرية والمساواة، أصبح أسير الإنكليز في جزيرة القديسة هيلانة حتى هاجوا وماجوا وأخذوا يتساءلون: أمن الشهامة أن يتركوه معزولاً في منفاه دون أن يهبّوا لإنقاذه؟ فتنادوا وتشاوروا وقرّروا أن يقوموا بمظاهرة صاخبة لمطالبة بريطانيا العظمى بالإفراج عن الأسير. وكانت القنصليات في ذلك الزمن تقوم مقام السفارات، فتجمهر الداموريون وزحفوا إلى صيدا حيث أخذوا يطوفون حول قنصلية الإنكليز وهم يصيحون:

«أو بتردّوا النابليون   أما بتثور الضيعه!»

لا شك أن قنصل بريطانيا ضحك كثيرًا في سرّه لسذاجة هؤلاء القرويين الذين كرّوا بشراويلهم النيلية و«مداساتهم» القذرة مهددين معربدين كأن غضبهم سيغيّر شيئًا في سياسة الدول العظمى، ونحن ايضًا ضحكنا كثيرًا لما قصّ علينا أستاذنا هذه النادرة. لكني عدت وتمعّنت في مغزاها فتبيَّن لي أنّها تنمُّ عن وجود خميرة ممتازة في صدور هؤلاء الكادحين السذج لأنهم كانوا يشعرون في صميمهم أنّ قضية الثورة والحرية والقضاء على الأنظمة الفاسدة المتحجرة هي قضية كل فرد وان كل إنسان أبي حرّ متضامن مع الإنسانية جمعاء في نضالها من أجل التآخي والمساواة، وأن هزيمة أي شخص مجاهد في سبيل المُثُل هي هزيمة الإنسانية، فالمصيبة التي تحلّ بالنبلاء الكرماء تعنيني وتعنيك وتعني كل شهم كريم. فهل تضامن أحد في دنيا العرب مع أهالي الدامور الأبرياء عندما حلّت بهم الكارثة وهل شعر أحد بأنّ قضيتهم تعنيه؟؟

---

٤٣) تموز سنة ١٧٩٨.

الإعجاب بنابليون بونابرت وكانوا يرون فيه تجسيدًا لانتصار الثورة الفرنسية المنادية بالحرية والمساواة والأخوّة وقد عظم شأنه عندهم وزاد تحمسهم لبطولاته عندما دحر عساكر المماليك في موقعة الأهرام الشهيرة[٤٣]. من ذلك الحين صارت أخبار نابليون أكثر رواجًا في سهرات الشتاء من قصص عنتر وبني هلال وبات طيف هذا العملاق الأسطوري يلازم خيال الداموريين... ها هو يقترب من شواطئ لبنان. من يعلم؟ ربما رأيناه ينزل بجيوشه المظفرة على رمال خلده والدامور حاملاً مشعل الحرية فيحرِّرنا من الاستعمار العثماني ومن نظام الإقطاع. أحلام جميلة ومثيرة، لكنها ما لبثت أن تبخّرت عندما حلَّت الفاجعة واندحر نابليون في موقعة واترلو. وما ان وصل خبر الهزيمة لآذان الداموريين وتيقّنوا أنّ بطلهم المحبوب، بطل الثورة المنادية بالحرية والمساواة، أصبح أسير الإنكليز في جزيرة القديسة هيلانة حتى هاجوا وماجوا وأخذوا يتساءلون: أمن الشهامة أن يتركوه معزولاً في منفاه دون أن يهبّوا لإنقاذه؟ فتنادوا وتشاوروا وقرّروا أن يقوموا بمظاهرة صاخبة لمطالبة بريطانيا العظمى بالإفراج عن الأسير. وكانت القنصليات في ذلك الزمن تقوم مقام السفارات، فتجمهر الداموريون وزحفوا إلى صيدا حيث أخذوا يطوفون حول قنصلية الإنكليز وهم يصيحون:

«أو بتردّوا النابليون   أما بتثور الضيعه!»

لا شك أن قنصل بريطانيا ضحك كثيرًا في سرّه لسذاجة هؤلاء القرويين الذين كرّوا بشراويلهم النيلية و«مداساتهم» القذرة مهددين معربدين كأن غضبهم سيغيّر شيئًا في سياسة الدول العظمى، ونحن ايضًا ضحكنا كثيرًا لما قصَّ علينا أستاذنا هذه النادرة. لكني عدت وتمعّنت في مغزاها فتبيَّن لي أنّها تنمُّ عن وجود خميرة ممتازة في صدور هؤلاء الكادحين السذج لأنهم كانوا يشعرون في صميمهم أنّ قضية الثورة والحرية والقضاء على الأنظمة الفاسدة المتحجرة هي قضية كل فرد وان كل إنسان أبي حرّ متضامن مع الإنسانية جمعاء في نضالها من أجل التآخي والمساواة، وأن هزيمة أي شخص مجاهد في سبيل المُثُل هي هزيمة الإنسانية، فالمصيبة التي تحلّ بالنبلاء الكرماء تعنيني وتعنيك وتعني كل شهم كريم. فهل تضامن أحد في دنيا العرب مع أهالي الدامور الأبرياء عندما حلَّت بهم الكارثة وهل شعر أحد بأنّ قضيتهم تعنيه؟؟

---

٤٣) تموز سنة ١٧٩٨.

فهزَّ الشيخ رأسه وأجاب:

– صحيح. لكن التربة...

فقاطعته قائلاً:

– التربة من تراب لبنان.

فأجاب:

– صحيح. لكني أشعر بأن تراب الدامور أخفّ على جثة أبنائها. أتعلم، يا صاحبي، أن بعض القبائل القديمة كانت تؤمن بأن الميت الذي لا يدفن في أرض عشيرته يبقى طيفه هائمًا، معذبًا، تائهًا على ضفة نهر الموت، لا يستطيع العبور إلى ضفة الأبد؟

عند المساء أتيته بزجاجتين من مشروبه المفضل وعدت أستفسر عن لغز الدامور، قلت مداعبًا:

– إذا حللته قبلك، ستدفع لي ثلاثة أضعاف ما دفعته ثمن الزجاجات.

فابتسم ابتسامته الكئيبة وأجاب:

– حسنًا، شرط أن تعوّض الدولة.

فهزَّ الشيخ رأسه وأجاب:

– صحيح. لكن التربة...

فقاطعته قائلاً:

– التربة من تراب لبنان.

فأجاب:

– صحيح. لكني أشعر بأن تراب الدامور أخفّ على جثة أبنائها. أتعلم، يا صاحبي، أن بعض القبائل القديمة كانت تؤمن بأن الميت الذي لا يدفن في أرض عشيرته يبقى طيفه هائمًا، معذبًا، تائهًا على ضفة نهر الموت، لا يستطيع العبور إلى ضفة الأبد؟

عند المساء أتيته بزجاجتين من مشروبه المفضل وعدت أستفسر عن لغز الدامور، قلت مداعبًا:

– إذا حللته قبلك، ستدفع لي ثلاثة أضعاف ما دفعته ثمن الزجاجات.

فابتسم ابتسامته الكئيبة وأجاب:

– حسنًا، شرط أن تعوّض الدولة.

الدامور أيام القائمقاميتين
(١٨٤٢-١٨٦١)

– بشيران طويا صفحة العهد الشهابي تاركين على رمال تاريخنا المائج آثار أقدام ملوّثة بالدم: بشير الكبير وبشير الصغير. الكبير سمل عيون أولاد عمه[٤٥] وسلبهم أملاكهم وغدر بصاحبه جرجس باز وانتزع من زعماء بني معروف ١٢ مقاطعة من أصل ١٤ ولم يترك لونًا من ألوان البطش والتنكيل إلا وبرع فيه، لكنه عرف بدهائه كيف يحيط كرسي الحكم بهالة من الوقار ويلجم أثناء حكمه نزعات التفرقة السياسية والطائفية.

– وما هو اللجام بربّك قل لي؟ قد يكون في ذكره فائدة لحسم الخلاف القائم اليوم بين محترفي السياسة؟

– حَسمَ النزاع بجمع الطائفتين الكبيرتين في شخصه الكريم.

يقول مؤرخنا الأستاذ يوسف يزبك ان بشير الكبير كان «نصفه مسلمًا وربعه مسيحيًا والربع الآخر درزيًا»[٤٦].

– عال! إذا أثبت التاريخ أن مثل هذا الجمع ممكن، فما رأيك بجعل مادة في دستورنا تنص بأنه على المرشح للرئاسة أن يجعل نصفه مسلمًا ونصفه مسيحيًا؟ ألا نخرج من مأزق الطائفية؟

– لا أظن.

– ولماذا لا تظن؟

– لأنهم في جدالهم البيزنطي سيختلفون على تعيين النصف العائد لكل طائفة. كل شيء يصبح موضوع جدل في بيت تنافرت قلوب ساكنيه.

غادر بشير الكبير جبل لبنان نهائيًا في تشرين الأول سنة ١٨٤٠ تاركًا البلاد في حالة تعيسة: الشعب يئن ويتململ تحت وطأة الضرائب الباهظة، الأمراء والمشايخ

---

٤٥) الأمير يوسف شهاب.

٤٦) أوراق لبنانية، عدد كانون الثاني ١٩٥٦، صفحة ٨.

ويبدو أنّ هذا الوضع الشاذ لم يزعزع إيمان الداموريين بأرضهم فلم تنزح عائلاتهم إلى بيروت أو كسروان كما فعل الكثير من العائلات المسيحية الواقعة في مناطق درزية و لم يطالب أهل الدامور بنظام خاص على غرار دير القمر. ووضع الشيخ قاسم أبي نكد بلدة الدامور تحت حمايته فلم تصب بأذى وبقيت علاقاتها مع الجيران علاقات طيبة. لكن الحمّى الطائفية ظلّت تستعر وتتصاعد حتى أصبح من المحال أن لا تسري العدوى إلى أهالي الدامور، ولاسيما أن أحد أبناء البلدة وهو المطران طوبيا عون كان غائصًا «لفوق أذنيه» في مشاكل السياسة اللبنانية بصفته مطران بيروت ووكيل البطريرك الماروني. وكان قنصل بريطانيا يتهم المطران طوبيا بنشر الدعايات المقلقة وفي تقرير أرسله إلى «لورد رَسل» نقع على الأسطر التالية:

«إن الدعاية الخبيثة التي بثها المطران طوبيا وأعوانه أصبحت معلومة لدى العموم وهي تجعل استتباب الأمن أمرًا مستحيلاً إلا إذا أبعد هذا المقلق عن بيروت»[٤٧].

ومن الثابت تاريخيًا أن المطران طوبيا كان يشدّد عزائم النصارى ويعمل جهده لتنمية قدرتهم الدفاعية، فأنشأ في بيروت رابطة لشبّان الموارنة، ما حمل قنصل بريطانيا، وهو المشهور بميله إلى الطائفة الدرزية، على نعت المطران الداموري بالمقلق وبناشر الدعاية الخبيثة.

«وفي أواخر نيسان ١٨٤٥ مر بالدامور نفر من الدروز يحملون ذخائر حربية من بيروت إلى الجبل فتصدّى لهم بعض شباب الدامور وناوشوهم في القتال قرب الناعمة فتراجع الدروز إلى قرب عرمون حيث أقبل دروز الغربَين لنجدتهم فانهزم النصارى إلى نواحي الناعمه ودخل الدروز دير الناعمه ونهبوه، فانحدر إليهم نصارى من عبيه وهجموا عليهم وأخذوا منهم ما نهبوه وقتلوا منهم نفرين»[٤٨].

هذه الشرارة ما لبثت أن حوّلت البلاد إلى أتون فامتدت الحريقة إلى المتن وإلى الجنوب وأقدم نصارى إقليم جزين بقيادة أبو سمرا غانم على حرق عدد من القرى الدرزية منها نيحا وباتر وعماطور ومرسته وبعدران، ويقول المؤرخ[٤٩]:

«وهذه عادة عندهم أن يحرق الغالب بيت المغلوب».

— إذن هستيريا الحرق أثناء الحروب الأهلية هي داء متأصّل في بلادنا؟

---

٤٧) عن تاريخ لبنان للدكتور يوسف مزهر.
٤٨) الشدياق: أخبار الأعيان.
٤٩) المصدر نفسه.

ويبدو أنّ هذا الوضع الشاذ لم يزعزع إيمان الداموريين بأرضهم فلم تنزح عائلاتهم إلى بيروت أو كسروان كما فعل الكثير من العائلات المسيحية الواقعة في مناطق درزية و لم يطالب أهل الدامور بنظام خاص على غرار دير القمر. ووضع الشيخ قاسم أبي نكد بلدة الدامور تحت حمايته فلم تصب بأذى وبقيت علاقاتها مع الجيران علاقات طيبة. لكن الحمّى الطائفية ظلّت تستعر وتتصاعد حتى أصبح من المحال أن لا تسري العدوى إلى أهالي الدامور، ولاسيما أن أحد أبناء البلدة وهو المطران طوبيا عون كان غائصًا «لفوق أذنيه» في مشاكل السياسة اللبنانية بصفته مطران بيروت ووكيل البطريرك الماروني. وكان قنصل بريطانيا يتهم المطران طوبيا بنشر الدعايات المقلقة وفي تقرير أرسله إلى «لورد رَسل» نقع على الأسطر التالية:

«إن الدعاية الخبيثة التي بثها المطران طوبيا وأعوانه أصبحت معلومة لدى العموم وهي تجعل استتباب الأمن أمرًا مستحيلاً إلا إذا أبعد هذا المقلق عن بيروت»[٤٧].

ومن الثابت تاريخيًا أن المطران طوبيا كان يشدّد عزائم النصارى ويعمل جهده لتنمية قدرتهم الدفاعية، فأنشأ في بيروت رابطة لشبّان الموارنة، ما حمل قنصل بريطانيا، وهو المشهور بميله إلى الطائفة الدرزية، على نعت المطران الداموري بالمقلق وبناشر الدعاية الخبيثة.

«وفي أواخر نيسان ١٨٤٥ مر بالدامور نفر من الدروز يحملون ذخائر حربية من بيروت إلى الجبل فتصدّى لهم بعض شباب الدامور وناوشوهم في القتال قرب الناعمة فتراجع الدروز إلى قرب عرمون حيث أقبل دروز الغربَين لنجدتهم فانهزم النصارى إلى نواحي الناعمه ودخل الدروز دير الناعمه ونهبوه، فانحدر إليهم نصارى من عبيه وهجموا عليهم وأخذوا منهم ما نهبوه وقتلوا منهم نفرين»[٤٨].

هذه الشرارة ما لبثت أن حوّلت البلاد إلى أتون فامتدت الحريقة إلى المتن وإلى الجنوب وأقدم نصارى إقليم جزين بقيادة أبو سمرا غانم على حرق عدد من القرى الدرزية منها نيحا وباتر وعماطور ومرسته وبعدران، ويقول المؤرخ[٤٩]:

«وهذه عادة عندهم أن يحرق الغالب بيت المغلوب».

— إذن هستيريا الحرق أثناء الحروب الأهلية هي داء متأصّل في بلادنا؟

---

٤٧) عن تاريخ لبنان للدكتور يوسف مزهر.

٤٨) الشدياق: أخبار الأعيان.

٤٩) المصدر نفسه.

– الفضل يعود إلى حكمة الزعامات الدرزية في منطقة الشحّار[٥١] ولاسيّما مشايخ أبي نكد وآل ناصر الدين. يقول السيد نجيب البعيني: في عام ١٨٦٠، عام الفتنة الطائفية، جال الأمير علي ناصر الدين على قرى الشحّار مُلقيًا الحُرم على كل درزي يعتدي على مسيحي وواضعًا الحد على كل مسيحي يعتدي على درزي وهكذا مرّت أحداث الستّين دون أن تشهد منطقة الشحّار قتالاً أو اقتتالاً أو نزاعًا، حتى ان قائد الحملة الفرنسية التي نزلت إلى كفرمتى للفصل بين المسيحيين والدروز دُهش للسلام المخيّم على البلدة والوئام القائم بين دروزها والمسيحيّين وعندما أبلغه كاهن القرية أي دَور قام به آل ناصر الدين، توجّه الضابط الفرنسي إلى منزلهم في زيارة شكر وتقدير ثم عاد هو وجنوده من حيث أتوا[٥٢].

– مَن لنا بمثل هؤلاء العقّال؟

– مهما اتّصفت القيادات بالتعقّل والحكمة، لا بُد من وقوع حوادث جماعيّة موسّعة قد تعمل على ترويع العامّة وتنمية القلق في النفوس، كما حدث في عبيه ذاتها، قاعدة مشايخ أبي نكد في الشحّار حيث كان الأميركان قد أقاموا إرسالية بروتستنتية. ففي ٢٠ أيار من تلك السنة، عمد درزي إلى الأخذ بالثأر وقتل مسيحيًا وهذا ما حمل نصارى عبيه على الهرب إلى الدامور، قفزًا من جَل إلى جَل، عبر الكروم. بذلك يشهد الحادث التالي كما رواه المستر هنري جسب Henry Jessup أحد المرسلين الأميركيين في كتابه «Fifty three years of Syria» الصادر في نيويورك سنة ١٩١٠ وقد نقله عنه الدكتور كمال الصليبي في «تاريخ لبنان الحديث»: «ويوم السبت في ٢٦ رفعنا علمًا أميركيًا فوق دار الإرسالية تحسُّبًا لهجوم قوات من حوران على المنطقة إذ لم تكن فيها الأحراج حينذاك. ويتّضح من كل ما تقدم أن الدامور كانت قاعدة مهمّة وملجأ لنصارى القُرى المجاورة وكانت تحظى بحماية مشايخ أبي نكد فخشي الدروز اللبنانيين وكان الأهلون جميعًا في حالة خوف وكانت جماعات مسلّحة من الدروز، خيّالة ومشاة، تزحف من قرية لأخرى وهي تترنم بأناشيدها الحربية ويوم الأحد في ٢٧، ذهبنا إلى الكنيسة الصغيرة فكان دَوري في إلقاء الموعظة. تطلعتُ إلى الوجوه أمامي فإذا هي قلقة وما إن بدأتُ الخدمة حتى تصاعدت طلقات نارية من مكان قريب يتبعها صراخ. فوجَم

---

٥١) الشحّار: منطقة تمتد من عبيه حتى السعديات قرب الدامور جنوبًا والناعمه شمالاً.
٥٢) نجيب البعيني في جريدة «النهار» تاريخ ١٦/٦/١٩٩٠ ص٨.

– الفضل يعود إلى حكمة الزعامات الدرزية في منطقة الشحّار[٥١] ولاسيّما مشايخ أبي نكد وآل ناصر الدين. يقول السيد نجيب البعيني: في عام ١٨٦٠، عام الفتنة الطائفية، جال الأمير علي ناصر الدين على قرى الشحّار مُلقيًا الحُرم على كل درزي يعتدي على مسيحي وواضعًا الحد على كل مسيحي يعتدي على درزي وهكذا مرّت أحداث الستّين دون أن تشهد منطقة الشحّار قتالاً أو اقتتالاً أو نزاعًا، حتى ان قائد الحملة الفرنسية التي نزلت إلى كفرمتى للفصل بين المسيحيين والدروز دُهش للسلام المخيّم على البلدة والوئام القائم بين دروزها والمسيحيّين وعندما أبلغه كاهن القرية أي دَور قام به آل ناصر الدين، توجّه الضابط الفرنسي إلى منزلهم في زيارة شكر وتقدير ثم عاد هو وجنوده من حيث أتوا[٥٢].

– مَن لنا بمثل هؤلاء العقّال؟

– مهما اتّصفت القيادات بالتعقّل والحكمة، لا بُد من وقوع حوادث جماعيّة موسّعة قد تعمل على ترويع العامّة وتنمية القلق في النفوس، كما حدث في عبيه ذاتها، قاعدة مشايخ أبي نكد في الشحّار حيث كان الأميركان قد أقاموا إرسالية بروتستنتية. ففي ٢٠ أيار من تلك السنة، عمد درزي إلى الأخذ بالثأر وقتل مسيحيًا وهذا ما حمل نصارى عبيه على الهرب إلى الدامور، قفزًا من جَل إلى جَل، عبر الكروم. بذلك يشهد الحادث التالي كما رواه المستر هنري جسب Henry Jessup أحد المرسلين الأميركيين في كتابه «Fifty three years of Syria» الصادر في نيويورك سنة ١٩١٠ وقد نقله عنه الدكتور كمال الصليبي في «تاريخ لبنان الحديث»: «ويوم السبت في ٢٦ رفعنا علمًا أميركيًا فوق دار الإرسالية تحسُّبًا لهجوم قوات من حوران على المنطقة إذ لم تكن فيها الأحراج حينذاك. ويتّضح من كل ما تقدم أن الدامور كانت قاعدة مهمّة وملجأ لنصارى القُرى المجاورة وكانت تحظى بحماية مشايخ أبي نكد فخشي الدروز اللبنانيين وكان الأهلون جميعًا في حالة خوف وكانت جماعات مسلّحة من الدروز، خيّالة ومشاة، تزحف من قرية لأخرى وهي تترنم بأناشيدها الحربية ويوم الأحد في ٢٧، ذهبنا إلى الكنيسة الصغيرة فكان دَوري في إلقاء الموعظة. تطلعتُ إلى الوجوه أمامي فإذا هي قلقة وما إن بدأتُ الخدمة حتى تصاعدت طلقات نارية من مكان قريب يتبعها صراخ. فوجَم

---

٥١) الشحّار: منطقة تمتد من عبيه حتى السعديات قرب الدامور جنوبًا والناعمه شمالاً.
٥٢) نجيب البعيني في جريدة «النهار» تاريخ ١٦/٦/١٩٩٠ ص٨.

* سذاجة الجماهير الشعبية وانقيادها وراء زعماء يضللونها بالأراجيف الدعائية ويستغوونها بفتح باب السلب والنهب على مصراعيه.

– لا شك أن وجوه الشبه عديدة ومذهلة إنما هناك فروقات جوهرية بين تلك الحرب وهذه، ففي حرب ١٨٦٠ لم يكن النزاع قائمًا بين يمين ويسار و لم تكن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين تهدد الكيان اللبناني.

– كان الكيان اللبناني مهددًا من الاستعمار العثماني وقد أثبتت الوثائق مسؤولية الباب العالي في إثارة الفتنة الطائفية. أما مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، ألا ترى مثلي أنه كان بالإمكان تسويتها بدلاً من تفجيرها، لو كانت الدولة موحّدة والسلطة المركزية قوية؟

– ربما، والنزاع بين اليمين واليسار؟

– من البديهي أن مثل هذا النزاع في إطار دولة موحّدة وسلطة مركزية قوية كان وجد حلّه ضمن اللعبة الديمقراطية كما هي الحالة في معظم الدول. فماذا جنى اليمين أو اليسار من تهجيرنا وماذا حصدت المقاومة من خراب الدامور؟ إن تركيبة المجتمع اللبناني حيث رواسب الإقطاعية والطائفية لا تزال تتراكم وتتفاعل، هي التي تجعل كل المغامرات ممكنة وكل المؤامرات سهلة التنفيذ.

– ألا تعتقد أن الإقطاعية هي ثمرة الطائفية؟

– أنا أعتقد بالعكس أنه لولا الإقطاعية لتلاشت الطائفية وتبخّرت. الإقطاعيون، ومن ورائهم حماة الأقليات، هم الذين يغذّون الطائفية بواسطة الأجهزة والمؤسسات الموكول إليها بث هذه الروح، فاللبناني في صميمه مركنتيلي أكثر منه طائفي. أما لاحظت كيف ان اللبناني ينعتق فجأة في المهجر من التعصب الطائفي وكيف ان المهاجرين اللبنانيين على اختلاف طوائفهم يتآلفون ويتضامنون؟ لماذا؟ أليس لأنهم يتحررون من مناخ الإقطاعية الإقليمية السائدة في مجتمعنا؟ والجدير بالملاحظة أن أصحاب الإقطاع كثيرًا ما كانوا يجرّون أتباعهم جرًّا إلى الاقتتال الطائفي والدليل على ذلك ما كتبه الزحليون سنة ١٨٤٥ إلى «أوجين بوجاد» Eugène Poujade قنصل فرنسا في بيروت:

«يؤخذ من الإفادات التي تلقيناها ما يثبت أن الدروز لم يأتوا لمحاربتنا إلا مكرهين من أصحاب الإقطاع، فإنهم يجبرونهم على ذلك بضرب العصي...»

---

٥٤) عن كتاب «المحررات السياسية والمفاوضات الدولية في سوريا ولبنان» للشيخين فيليب وفريد الخازن.

* سذاجة الجماهير الشعبية وانقيادها وراء زعماء يضللونها بالأراجيف الدعائية ويستغوونها بفتح باب السلب والنهب على مصراعيه.

– لا شك أن وجوه الشبه عديدة ومذهلة إنما هناك فروقات جوهرية بين تلك الحرب وهذه، ففي حرب ١٨٦٠ لم يكن النزاع قائمًا بين يمين ويسار و لم تكن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين تهدد الكيان اللبناني.

– كان الكيان اللبناني مهددًا من الاستعمار العثماني وقد أثبتت الوثائق مسؤولية الباب العالي في إثارة الفتنة الطائفية. أما مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، ألا ترى مثلي أنه كان بالإمكان تسويتها بدلاً من تفجيرها، لو كانت الدولة موحّدة والسلطة المركزية قوية؟

– ربما، والنزاع بين اليمين واليسار؟

– من البديهي أن مثل هذا النزاع في إطار دولة موحّدة وسلطة مركزية قوية كان وجد حلّه ضمن اللعبة الديمقراطية كما هي الحالة في معظم الدول. فماذا جنى اليمين أو اليسار من تهجيرنا وماذا حصدت المقاومة من خراب الدامور؟ إن تركيبة المجتمع اللبناني حيث رواسب الإقطاعية والطائفية لا تزال تتراكم وتتفاعل، هي التي تجعل كل المغامرات ممكنة وكل المؤامرات سهلة التنفيذ.

– ألا تعتقد أن الإقطاعية هي ثمرة الطائفية؟

– أنا أعتقد بالعكس أنه لولا الإقطاعية لتلاشت الطائفية وتبخّرت. الإقطاعيون، ومن ورائهم حماة الأقليات، هم الذين يغذّون الطائفية بواسطة الأجهزة والمؤسسات الموكول إليها بث هذه الروح، فاللبناني في صميمه مركنتيلي أكثر منه طائفي. أما لاحظت كيف ان اللبناني ينعتق فجأة في المهجر من التعصب الطائفي وكيف ان المهاجرين اللبنانيين على اختلاف طوائفهم يتآلفون ويتضامنون؟ لماذا؟ أليس لأنهم يتحررون من مناخ الإقطاعية الإقليمية السائدة في مجتمعنا؟ والجدير بالملاحظة أن أصحاب الإقطاع كثيرًا ما كانوا يجرّون أتباعهم جرًّا إلى الاقتتال الطائفي والدليل على ذلك ما كتبه الزحليون سنة ١٨٤٥ إلى «أوجين بوجاد» Eugène Poujade قنصل فرنسا في بيروت:

«يؤخذ من الإفادات التي تلقيناها ما يثبت أن الدروز لم يأتوا لمحاربتنا إلا مكرهين من أصحاب الإقطاع، فإنهم يجبرونهم على ذلك بضرب العصي...»

---

٥٤) عن كتاب «المحررات السياسية والمفاوضات الدولية في سوريا ولبنان» للشيخين فيليب وفريد الخازن.

هذا ما لا أستطيع أن أفهم، كيف أن اللبنانيين، بعد أن اكتشفوا حدودهم على حقيقتها، وبعد ان اختبروا مرارًا وتكرارًا إلى أين تجرّهم الحروب الأهلية يتناسون تاريخهم ويعودون بحماس وعناد إلى مباراة اللاغالب ولا مغلوب[٥٧].

أيُعقَل أن يكون الذين رفعوا العرائض إلى الدول الكبرى سنة ١٨٤٤ و١٨٤٥ مستصرخين ضمير العالم مؤكدين أن اللبنانيين، إنما ذهبوا ضحية مؤامرة بعض القناصل وان «لا صالح لهم ولا راحة بالابتعاد عن بعضهم» وانهم «منذ أيام آبائهم وأجدادهم يعيشون مثل الاخوة مع بعضهم البعض» رغم اختلاف الأديان والمذاهب، أيُعقَل أن يعودوا ويقعوا في الفخ ذاته سنة ١٨٦٠؟

هذا السؤال أتاح لي الفرصة لاثأر للمنطق من عبثية الشيخ، فقفزت على كلمة «أيعقل» وتكمشت بها وقلت ضاحكًا:

– وأنت، يا شيخي، أنسيت أنك منذ برهة حذّرتني من فخ المعقول واللامعقول وقررت أن لا دور للعقل في تاريخ الأمم لأن الأهواء والمصالح هي التي تسيِّر العجلة، فكيف تقع الآن في الفخ الذي حذرتني منه؟

– صحيح. لقد غلبتني. لكن لا بدّ من الاستغراب... أعتقد أني بحاجة إلى جرعة كي أستعيد صفاء ذهني.

قال هذا ووضع فكّ الزجاجة بين شفتيه وتناول جرعة فوق المعقول فانشرحت أساريره وعاد يحدثني عن الدامور.

*

٥٧) من بديهيات سياسة الدول العظمى في منطقتنا الإبقاء على التوازن بين الجناحين المسلم والمسيحي في لبنان وهي قادرة على ممارسة الضغوط الكفيلة بإعادة التوازن إذا طرأ عليه أدنى خلل.

هذا ما لا أستطيع أن أفهم، كيف أن اللبنانيين، بعد أن اكتشفوا حدودهم على حقيقتها، وبعد ان اختبروا مرارًا وتكرارًا إلى أين تجرّهم الحروب الأهلية يتناسون تاريخهم ويعودون بحماس وعناد إلى مباراة اللاغالب ولا مغلوب[٥٧].

أيُعقَل أن يكون الذين رفعوا العرائض إلى الدول الكبرى سنة ١٨٤٤ و١٨٤٥ مستصرخين ضمير العالم مؤكدين أن اللبنانيين، إنما ذهبوا ضحية مؤامرة بعض القناصل وان «لا صالح لهم ولا راحة بالابتعاد عن بعضهم» وانهم «منذ أيام آبائهم وأجدادهم يعيشون مثل الاخوة مع بعضهم البعض» رغم اختلاف الأديان والمذاهب، أيُعقَل أن يعودوا ويقعوا في الفخ ذاته سنة ١٨٦٠؟

هذا السؤال أتاح لي الفرصة لاثأر للمنطق من عبثية الشيخ، فقفزت على كلمة «أيعقل» وتكمشت بها وقلت ضاحكًا:

– وأنت، يا شيخي، أنسيت أنك منذ برهة حذّرتني من فخ المعقول واللامعقول وقررت أن لا دور للعقل في تاريخ الأمم لأن الأهواء والمصالح هي التي تسيِّر العجلة، فكيف تقع الآن في الفخ الذي حذرتني منه؟

– صحيح. لقد غلبتني. لكن لا بدّ من الاستغراب... أعتقد أني بحاجة إلى جرعة كي أستعيد صفاء ذهني.

قال هذا ووضع فكّ الزجاجة بين شفتيه وتناول جرعة فوق المعقول فانشرحت أساريره وعاد يحدثني عن الدامور.

*

٥٧) من بديهيات سياسة الدول العظمى في منطقتنا الإبقاء على التوازن بين الجناحين المسلم والمسيحي في لبنان وهي قادرة على ممارسة الضغوط الكفيلة بإعادة التوازن إذا طرأ عليه أدنى خلل.

الدامور على عهد المتصرفية
(١٨٦١-١٩١٤)

– أدعوك الآن إلى جولة ممتعة في سهل الدامور على زمن المتصرفية ولنجعلها في الربيع، في مطلع شهر أيار لتشاهد المعجزة التي حققتها الدامور...

وإذا بالمحامي الصغير، سارق البيض، يتنطَّح سائلاً:

– ألا تسمح لنا، يا جدي، أن نرافقكم في الجولة؟

– لا بأس! لا بأس! تعالوا معنا.

– ألا تشرح لنا، يا جدي، بكلمتين أو ثلاثة ما هو زمن المتصرفية؟

– سمعًا وطاعة! على اثر حلول الكارثة بسنة الستين اجتمع ممثلو الدول العظمى مع ممثل السلطان في بيروت وأقروا دستورًا جديدًا للبنان الصغير (وقد سمّوه «الصغير» لأنّ بيروت وصيدا وطرابلس والبقاع والجنوب سُلِخت عن الجبل...) وأصبح حكم الجبل بموجب هذا الدستور خاضعًا لمتصرف مسيحي غير لبناني يعيِّنه السلطان ويساعده مجلس إدارة من اثني عشر عضوًا يمثلون جميع الطوائف بالنسبة لعدد نفوس كل منها، فنعِمَ لبنان تحت حكم المتصرفين بنعمة الهدوء والأمان تحت رعاية الدول الموقعة على البروتوكول[٥٨] وتوقف اللبنانيون عن التناحر والتقاتل وقد سبق وقلت ان داود باشا وهو الذي دشَّن عهد المتصرفية قد فكر جديًا بإنشاء مرفأ على مصب نهر الدامور ليجعل للبنان المستقل مرفأ مستقلاً نافذًا إلى قلب الشوف.

– أي إلى قلب لبنان؟

– نعم، أي إلى قلب لبنان.

– ولكنك لم تقل لنا الشيء الأهمّ؟

– وما هو الشيء الأهمّ؟

– التعويض على المنكوبين. ألم يعوِّضوا عليهم؟

---

٥٨) تركيا، انكلترا، فرنسا، روسيا، النمسا، بروسيا.

– لا، جئنا لنتفرّج. أتسمح لنا بالدخول إلى خصّك؟

– بكل طيبة خاطر. أهلاً وسهلاً بالضيوف، حلت البركة. انشاالله، على وجهكم، يمضي عيد العنصرة بسلامة.

عيد العنصرة يقترب والمزارعون يخشونه. إنهم يخافون من حلول الروح القدس لأنه لا يهبط في لبنان إلا مع هبوب العاصفة. «العنصرة يا حريق، يا غريق». يقول المثل الدارج. دخلنا الخُص: أمامنا ممشى ضيق وعلى جانبيه تمتد موائد الطعام، موزّعة على عدة طوابق. الموائد مغطاة بورق التوت كي يسرح عليها دود الحرير ويأكل ما طاب له. ولكن لماذا؟ لماذا هذه الحشرات البيضاء الجميلة كلها دون استثناء قد انقطعت عن الأكل وعن الحركة؟

– ربما لأن الأكل لا يعجبها فأضربت عن الطعام، يا جدي. فسّر المحامي الصغير، سارق البيض.

– لا، يا جدي. الأكل شهي والموائد نظيفة. ورق التوت نضر ودود الحرير يحبه كثيرًا. إنما هذه الدودة الذكية تصوم. تصوم أربع مرات. تنقطع عن الأكل وعن الحركة من تلقاء نفسها. ترفع رأسها نحو العلاء وتتواجد كأنها في حال من الأحوال الصوفية، كأنها تستلهم، كأنها تطرح على العلي سؤالاً يحزّ في صميمها: «لماذا أوجدتني؟ ألأملأ جوفي فقط؟ ألاملأ جوفي وأموت؟» في الصوم الأول لا ينزل عليها الإلهام، فتعود وتصوم مرة ثانية ثم ثالثة، وفي الرابعة، قرب حلول العنصرة، يتحرك في أمعائها خيط الحرير ويشرق في ظلمة الجوف الفارغ فجر الرسالة: رسالة الإبداع. يقول لها الصوت الداخلي: «لا، لن تموتي إذا صدقت مع ذاتك وبذلت حياتك. ستحيين. فنّك يخلّدك!» الصوت الداخلي قد هداها إلى رسالتها. حينئذ تعود إلى المائدة وتلتهم بشهية متزايدة هذا الورق المبارك الذي تعرف الآن أنّ فيه سرّ خلودها وأن عليها العمل لتحويله إلى أجمل نسيج في العالم. بعد الفطرة الرابعة، تبتعد نهائيًا عن مائدة الطعام وتبدأ بتنفيذ مهمتها: من فمها الصغير ينطلق خيط حريري تحوكه بدقة ومهارة حول جسمها لتتكفن به وهكذا تنهي دورة حياتها كدودة. تتوارى عن الوجود. تنسى التوت وطعم الورق النضر، تنسى كل شيء بما في ذلك كيانها الأول وتدفن نفسها في الشرنقة التي هندستها وأبدعت حياكتها... وبعد حين، إذا لم يخنقها صاحب معمل الحرير في خلقينه، تنبعث من جديد: تنقر الشرنقة كما يفعل الصوص بالبيضة وتنطلق من رمسها، لا دودة زاحفة

– لا، جئنا لنتفرّج. أتسمح لنا بالدخول إلى خصّك؟

– بكل طيبة خاطر. أهلاً وسهلاً بالضيوف، حلت البركة. انشاالله، على وجهكم، يمضي عيد العنصرة بسلامة.

عيد العنصرة يقترب والمزارعون يخشونه. إنهم يخافون من حلول الروح القدس لأنه لا يهبط في لبنان إلا مع هبوب العاصفة. «العنصرة يا حريق، يا غريق». يقول المثل الدارج. دخلنا الخُص: أمامنا ممشى ضيق وعلى جانبيه تمتد موائد الطعام، موزّعة على عدة طوابق. الموائد مغطاة بورق التوت كي يسرح عليها دود الحرير ويأكل ما طاب له. ولكن لماذا؟ لماذا هذه الحشرات البيضاء الجميلة كلها دون استثناء قد انقطعت عن الأكل وعن الحركة؟

– ربما لأن الأكل لا يعجبها فأضربت عن الطعام، يا جدي. فسَّر المحامي الصغير، سارق البيض.

– لا، يا جدي. الأكل شهي والموائد نظيفة. ورق التوت نضر ودود الحرير يحبه كثيرًا. إنما هذه الدودة الذكية تصوم. تصوم أربع مرات. تنقطع عن الأكل وعن الحركة من تلقاء نفسها. ترفع رأسها نحو العلاء وتتواجد كأنها في حال من الأحوال الصوفية، كأنها تستلهم، كأنها تطرح على العلي سؤالاً يحزّ في صميمها: «لماذا أوجدتني؟ ألأملأ جوفي فقط؟ ألاملأ جوفي وأموت؟» في الصوم الأول لا ينزل عليها الإلهام، فتعود وتصوم مرة ثانية ثم ثالثة، وفي الرابعة، قرب حلول العنصرة، يتحرك في أمعائها خيط الحرير ويشرق في ظلمة الجوف الفارغ فجر الرسالة: رسالة الإبداع. يقول لها الصوت الداخلي: «لا، لن تموتي إذا صدقت مع ذاتك وبذلت حياتك. ستحيين. فنّك يخلّدك!» الصوت الداخلي قدهداها إلى رسالتها. حينئذ تعود إلى المائدة وتلتهم بشهية متزايدة هذا الورق المبارك الذي تعرف الآن أنّ فيه سرّ خلودها وأن عليها العمل لتحويله إلى أجمل نسيج في العالم. بعد الفطرة الرابعة، تبتعد نهائيًا عن مائدة الطعام وتبدأ بتنفيذ مهمتها: من فمها الصغير ينطلق خيط حريري تحوكه بدقة ومهارة حول جسمها لتتكفن به وهكذا تنهي دورة حياتها كدودة. تتوارى عن الوجود. تنسى التوت وطعم الورق النضر، تنسى كل شيء بما في ذلك كيانها الأول وتدفن نفسها في الشرنقة التي هندستها وأبدعت حياكتها... وبعد حين، إذا لم يخنقها صاحب معمل الحرير في خلقينه، تنبعث من جديد: تنقر الشرنقة كما يفعل الصوص بالبيضة وتنطلق من رمسها، لا دودة زاحفة

على متعهم بل وظفوها في أكبر صناعة وطنية وكثيرًا ما كانوا يستدينون فوق مداخيلهم لتوسيع مشاريعهم فأصبحت الدامور وسهلها أكبر دعامة لاقتصاد جبل لبنان.

في سنة ١٩٠٥ كان في الدامور أربعة معامل حلّ: الأول خاصة شاكر هيكل الغريِّب وعدد دواليبه ١٦٠، والثاني يخص وقف دير مار جريس الناعمه وعدد دواليبه ٨٠، والثالث خاصة نعيم عون وشركاه وعدد دواليبه ٦٠، والرابع خاصة بطرس هيكل الغريِّب وعدد دواليبه ٥٠[٦١]. ثم أنشئ فيما بعد معمل خامس لصاحبه نعيم نستير عون. فأخذ العمال يتوافدون إلى الدامور ليسترزقوا من مصانعها: مسلمون ومسيحيون، لا فرق. لم يكن في الدامور أدنى أثر للتعصب الطائفي. وكان تجار الحرير الأوروبيون يقولون ان أجود الحرير وأشده نظافة ولمعانًا هو حرير لبنان وهو يفوق حرير الهند وبلاد فارس قيمة بمعدل ٣ لواحد. وحرير الدامور والشويفات كان يُغسَل فيبيَضّ ويستعملونه لنسج المخمل والأطلس وكان التسويق يجري غالبًا في صيدا أمام خان الفرنج قرب الشاطئ. وهكذا نمت الدامور فبلغ عدد سكانها سنة ١٩٠٠ نحو ٥ آلاف نسمة في حين كان مجمل عدد الموارنة في الشوف يبلغ نحو ٣٢ ألفًا[٦٢].

*

– أتعلم من هو الرجل الذي تبرّع بأكبر مبلغ من أجل تعبيد طريق الحجاز؟

– لا أعلم. إنما لا بدَّ أن يكون أحد الأمراء أو الملوك العرب.

– أتصدّق إذا قلت لك انه ماروني من الدامور. كانت طريق الحج مهملة في تلك الأيام وكان الحجّاج القاصدون بيت الله الحرام يعانون الأهوال وهم في طريقهم إلى مهد الإسلام في مكّة المكرمة. فقرر السلطان العثماني أن يعبِّد الطريق وفتح باب التبرعات وكان صاحب أكبر معمل حرير في الدامور المدعو شاكر هيكل الغريِّب رجلاً كريمًا يحب الجاه ويعطي بسخاء، «فتبرّع من ماله الخاص بمبلغ مئة ألف ليرة ذهب»[٦٣] وصار أكبر مساهم في أعزّ مشروع على قلوب المسلمين. فأرسل السلطان نوبته السلطانية لتدقّ في داره وأنعم عليه بلقب «بيك». تزوج شاكر بيك من ابنه قنصل فرنسا في صيدا السيد

٦١) وقد زاد المرحوم بطرس هيكل عدد الدواليب حتى أصبح ١٠٠.
٦٢) عن دليل لبنان، لابراهيم الأسود.
٦٣) عن موسوعة «إعرف لبنان» لصاحبها عفيف مرهج.

على متعهم بل وظفوها في أكبر صناعة وطنية وكثيرًا ما كانوا يستدينون فوق مداخيلهم لتوسيع مشاريعهم فأصبحت الدامور وسهلها أكبر دعامة لاقتصاد جبل لبنان.

في سنة ١٩٠٥ كان في الدامور أربعة معامل حلّ: الأول خاصة شاكر هيكل الغريِّب وعدد دواليبه ١٦٠، والثاني يخص وقف دير مار جريس الناعمه وعدد دواليبه ٨٠، والثالث خاصة نعيم عون وشركاه وعدد دواليبه ٦٠، والرابع خاصة بطرس هيكل الغريِّب وعدد دواليبه ٥٠[٦١]. ثم أنشئ فيما بعد معمل خامس لصاحبه نعيم نستير عون. فأخذ العمال يتوافدون إلى الدامور ليسترزقوا من مصانعها: مسلمون ومسيحيون، لا فرق. لم يكن في الدامور أدنى أثر للتعصب الطائفي. وكان تجار الحرير الأوروبيون يقولون ان أجود الحرير وأشده نظافة ولمعانًا هو حرير لبنان وهو يفوق حرير الهند وبلاد فارس قيمة بمعدل ٣ لواحد. وحرير الدامور والشويفات كان يُغسَل فيبيَضّ ويستعملونه لنسج المخمل والأطلس وكان التسويق يجري غالبًا في صيدا أمام خان الفرنج قرب الشاطئ. وهكذا نمت الدامور فبلغ عدد سكانها سنة ١٩٠٠ نحو ٥ آلاف نسمة في حين كان مجمل عدد الموارنة في الشوف يبلغ نحو ٣٢ ألفًا[٦٢].

*

– أتعلم من هو الرجل الذي تبرّع بأكبر مبلغ من أجل تعبيد طريق الحجاز؟

– لا أعلم. إنما لا بدّ أن يكون أحد الأمراء أو الملوك العرب.

– أتصدّق إذا قلت لك انه ماروني من الدامور. كانت طريق الحج مهملة في تلك الأيام وكان الحجّاج القاصدون بيت اللّه الحرام يعانون الأهوال وهم في طريقهم إلى مهد الإسلام في مكّة المكرمة. فقرر السلطان العثماني أن يعبِّد الطريق وفتح باب التبرعات وكان صاحب أكبر معمل حرير في الدامور المدعو شاكر هيكل الغريِّب رجلاً كريمًا يحب الجاه ويعطي بسخاء، «فتبرّع من ماله الخاص بمبلغ مئة ألف ليرة ذهب»[٦٣] وصار أكبر مساهم في أعزّ مشروع على قلوب المسلمين. فأرسل السلطان نوبته السلطانية لتدقّ في داره وأنعم عليه بلقب «بيك». تزوج شاكر بيك من ابنه قنصل فرنسا في صيدا السيد

---

٦١) وقد زاد المرحوم بطرس هيكل عدد الدواليب حتى أصبح ١٠٠.

٦٢) عن دليل لبنان، لابراهيم الأسود.

٦٣) عن موسوعة «إعرف لبنان» لصاحبها عفيف مرهج.

في تعبئة الجرار من البئر العميقة وحملها مسافة بعيدة على ظهور الدواب أو على رؤوس النساء. وكان الخوري بولس الغريِّب يملك قطعة أرض في خراج دقّون تجري بالقرب منها مياه نبع صافٍ يسمونه «نبع الحلال». «نبع الحلال» ما أجمل هذا الاسم! أعجب الخوري به فعزم أن يسقي بلدته من هذا النبع الذي يحمل في اسمه معنى يعكس عذوبة مائه فرهن أملاكه على ستة آلاف ليرة ذهبًا وباشر بتحقيق مشروعه وفي ربيع سنة ١٨٩٠، بعد اشغال حفر عبر الجبال الصخرية دامت أكثر من ٣ سنوات، تدفقت مياه نبع الحلال في منازل البلدة وكان ذلك على عهد المتصرف واصا باشا (١٨٨٣-١٨٩٢). والدامور أول بلدة في جبل لبنان أنجز فيها مثل هذا المشروع وقد أنجز على يد أحد أبنائها، دون أدنى مساعدة لا من دولة ولا من مؤسسة... وعلى عهد المطران يوسف الدبس، شيَّد نعمان هيكل الغريِّب كنيسة على اسم العذراء من ماله الخاص فصار الحيّ الأعلى من معلقة الدامور يدعى حيّ السيدة[٦٦]. في تلك الكنيسة جمعوا الداموريين الذين لم يغادروا البلدة عند اقتحامها ومنها نقلوهم إلى شارع صبرا.

– وكنت في عددهم، يا شيخي.

– نعم، كنت في عددهم.

– أتسمح بأن تقول لنا شيئًا عن انطباعاتك؟

– لا تفتح هذا الباب الآن. إذا مدَّ اللّه بعمري، ورجعنا إلى الدامور، سأكتب مذكراتي.

*

– والمدارس التي أنشأتها الدولة على عهد المتصرفين، ألم يكن للدامور نصيب منها؟

– في أول عهدها بدأت الدامور كسائر قرى الجبل تعلّم أولادها تحت السنديانة القائمة أمام دار البلدية وأنا أنتظر بفروغ صبر خبرًا عنها. ثم تقدم التعليم وانتقل التلامذة من تحت السنديانة إلى غرفة تخص وقف مار الياس ثم أخذ الآباء اليسوعيون يشرفون

---

٦٦) يوسف الدبس: تاريخ الموارنة.

في تعبئة الجرار من البئر العميقة وحملها مسافة بعيدة على ظهور الدواب أو على رؤوس النساء. وكان الخوري بولس الغريِّب يملك قطعة أرض في خراج دقّون تجري بالقرب منها مياه نبع صافٍ يسمونه «نبع الحلال». «نبع الحلال» ما أجمل هذا الاسم! أعجب الخوري به فعزم أن يسقي بلدته من هذا النبع الذي يحمل في اسمه معنى يعكس عذوبة مائه فرهن أملاكه على ستة آلاف ليرة ذهبًا وباشر بتحقيق مشروعه وفي ربيع سنة ١٨٩٠، بعد اشغال حفر عبر الجبال الصخرية دامت أكثر من ٣ سنوات، تدفقت مياه نبع الحلال في منازل البلدة وكان ذلك على عهد المتصرف واصا باشا (١٨٨٣-١٨٩٢). والدامور أول بلدة في جبل لبنان أنجز فيها مثل هذا المشروع وقد أنجز على يد أحد أبنائها، دون أدنى مساعدة لا من دولة ولا من مؤسسة... وعلى عهد المطران يوسف الدبس، شيَّد نعمان هيكل الغريِّب كنيسة على اسم العذراء من ماله الخاص فصار الحيّ الأعلى من معلقة الدامور يدعى حيّ السيدة[٦٦]. في تلك الكنيسة جمعوا الداموريين الذين لم يغادروا البلدة عند اقتحامها ومنها نقلوهم إلى شارع صبرا.

- وكنت في عددهم، يا شيخي.

- نعم، كنت في عددهم.

- أتسمح بأن تقول لنا شيئًا عن انطباعاتك؟

- لا تفتح هذا الباب الآن. إذا مدَّ اللّه بعمري، ورجعنا إلى الدامور، سأكتب مذكراتي.

*

- والمدارس التي أنشأتها الدولة على عهد المتصرفين، ألم يكن للدامور نصيب منها؟

- في أول عهدها بدأت الدامور كسائر قرى الجبل تعلّم أولادها تحت السنديانة القائمة أمام دار البلدية وأنا أنتظر بفروغ صبر خبرًا عنها. ثم تقدم التعليم وانتقل التلامذة من تحت السنديانة إلى غرفة تخص وقف مار الياس ثم أخذ الآباء اليسوعيون يشرفون

---

٦٦) يوسف الدبس: تاريخ الموارنة.

بعقلين في الصيف وعين عنوب في الشتاء. وكان قائمقام الشوف سنة ١٩٠٠ الأمير مصطفى ارسلان ثم خلفه الأمير توفيق ومدير المال الشيخ خطار تلحوق ثم خلفه محمود بك تقي الدين وكان مدير ناحية الشحار الأمير سعيد قعدان.

– إذن كانت للدامور علاقة وثيقة مع زعماء بني معروف.

– وثيقة وودّية ليس فقط مع الزعماء بل مع جميع أبناء الطائفة الدرزية.

– وشؤون البلدة الداخلية من كان يديرها؟

– شؤون البلدة الداخلية كانت منوطة بمجلس بلدي مؤلف من اثني عشر عضوًا وبشيخ صلح يعاونه ثلاثة مخاتير[٦٨] فشرع الداموريون يسهرون بأنفسهم على نظافة بلدتهم وتحسين حالة الطرق الداخلية ولما أقبلت سنة ١٩٠٠ كان في الدامور ٨ عربات للنقل.

– يعني ٨ «تكسيات» على الخيل، يا جدي؟ سأل المحامي الصغير.

– نعم، ٨ تكسيات على الخيل...

قبل أن نطوي صفحة المتصرفية، لا بدّ من الإشارة إلى أنه في سنة ١٩١١ تأسست في باريس جمعية سورية لبنانية غايتها المطالبة باستقلال البلاد وكان شعارها: «سوريا للسوريين». ومن أعضائها البارزين والمناضلين أحد أبناء الدامور المرحوم هيكل هيكل نجل شاكر بك هيكل صاحب القصر الذي سبق الكلام عليه. نشأت تلك الحركة الاستقلالية ردًّا على سياسة تركيا الفتاة الهادفة إلى دمج جميع رعايا السلطنة بالكيان العثماني وتلقينهم اللغة التركية فتألفت الجمعيات الوطنية لمكافحة هذا التيار وإنقاذ الكيان اللبناني–السوري من الضياع. وهكذا ترى ان الدامور كانت دائمًا السبّاقة: الأولى في حقل الإنتاج وصناعة الحرير، الأولى في جر مياه الشفة لأبنائها، والأولى في النزوع إلى التحرر مع الحفاظ على هويتها. رمزها دودة الحرير: فهي تارة تصوم وتارة

٦٨) مدة المجلس البلدي كانت سنتين وإليك أسماء أعضائه كما وردت في دليل لبنان سنة ١٩٠٦: جريس مخايل الغريب، اسكندر شيبان الغريب، طوبيا هيكل الغريب، أمين مبارك عون، رشيد شاهين عون، خليل الياس الغريب، جبرايل بطرس عون، بطرس طنوس عون، أيوب الخوري مارون، داود أبو عقل، حنا المتني، رشيد لبّس، وكان شيخ الصلح يوسف فرحات الغريب، والمختارون: الياس أسعد عون وشاكر عبود عقل وطنوس منصف المتني.

بعقلين في الصيف وعين عنوب في الشتاء. وكان قائمقام الشوف سنة ١٩٠٠ الأمير مصطفى ارسلان ثم خلفه الأمير توفيق ومدير المال الشيخ خطار تلحوق ثم خلفه محمود بك تقي الدين وكان مدير ناحية الشحار الأمير سعيد قعدان.

– إذن كانت للدامور علاقة وثيقة مع زعماء بني معروف.

– وثيقة وودّية ليس فقط مع الزعماء بل مع جميع أبناء الطائفة الدرزية.

– وشؤون البلدة الداخلية من كان يديرها؟

– شؤون البلدة الداخلية كانت منوطة بمجلس بلدي مؤلف من اثني عشر عضوًا وبشيخ صلح يعاونه ثلاثة مخاتير[٦٨] فشرع الداموريون يسهرون بأنفسهم على نظافة بلدتهم وتحسين حالة الطرق الداخلية ولما أقبلت سنة ١٩٠٠ كان في الدامور ٨ عربات للنقل.

– يعني ٨ «تكسيات» على الخيل، يا جدي؟ سأل المحامي الصغير.

– نعم، ٨ تكسيات على الخيل...

قبل أن نطوي صفحة المتصرفية، لا بدّ من الإشارة إلى أنه في سنة ١٩١١ تأسست في باريس جمعية سورية لبنانية غايتها المطالبة باستقلال البلاد وكان شعارها: «سوريا للسوريين». ومن أعضائها البارزين والمناضلين أحد أبناء الدامور المرحوم هيكل هيكل نجل شاكر بك هيكل صاحب القصر الذي سبق الكلام عليه. نشأت تلك الحركة الاستقلالية ردًّا على سياسة تركيا الفتاة الهادفة إلى دمج جميع رعايا السلطنة بالكيان العثماني وتلقينهم اللغة التركية فتألفت الجمعيات الوطنية لمكافحة هذا التيار وإنقاذ الكيان اللبناني–السوري من الضياع. وهكذا ترى ان الدامور كانت دائمًا السبّاقة: الأولى في حقل الإنتاج وصناعة الحرير، الأولى في جر مياه الشفة لأبنائها، والأولى في النزوع إلى التحرر مع الحفاظ على هويتها. رمزها دودة الحرير: فهي تارة تصوم وتارة

---

٦٨) مدة المجلس البلدي كانت سنتين وإليك أسماء أعضائه كما وردت في دليل لبنان سنة ١٩٠٦: جريس مخايل الغريب، اسكندر شيبان الغريب، طوبيا هيكل الغريب، أمين مبارك عون، رشيد شاهين عون، خليل الياس الغريب، جبرايل بطرس عون، بطرس طنوس عون، أيوب الخوري مارون، داود أبو عقل، حنا المتني، رشيد لبّس، وكان شيخ الصلح يوسف فرحات الغريب، والمختارون: الياس أسعد عون وشاكر عبود عقل وطنوس منصف المتني.

من حرب عالمية إلى حرب عالمية
(١٩١٤-١٩٣٩)

من حرب عالمية إلى حرب عالمية
(١٩١٤-١٩٣٩)

– اجتازت الدامور حربين عالميتين وأصابها القسط الأوفر من الضربات التي حلّت بلبنان من جراء الحربين لكنها لم تتعرض إلى ما تعرضت إليه أثناء هذه الحرب المسمّاة أهلية، من إذلال وتشريد وخراب. كانت تصمد في وجه الأعاصير وتعود بسرعة لتلملم طاقاتها المبعثرة وتجدد شبابها كأنها تستمد من نوائب الدهر مزيدًا من المناعة والحيوية.

– «إلى هيكلك المعطّر يأتي فينيق ودامور»... أتذكر يا شيخي صلاة الكاهن الصيدوني؟

– أجل، أذكر: «فينيق المجنّح الذي يأتي منعتقًا من شيخوخته فيجدد شبابه ويولّد نفسه بنفسه، ودامور، ابن اوران، الذي يحيي ويميت، يعمر ويدمر ويتخذ من اللهيب حياة ثانية...»

– إذن كانت الدامور على مثال الإله الصيدوني الذي أعطاها اسمه. لكنك حتى الآن لم تفكّ لنا اللغز، انترك السؤال معلّقًا حتى النهاية؟

– لِمَ لا؟ أليس هذا أسلوب التشويق في الروايات البوليسية؟

– أنحن الآن بصدد رواية بوليسية أم بصدد مأساة واقعية.

– إنها مأساة مغلّفة برواية بوليسية. الغموض يكتنف الجريمة من كل ناحية. من تآمر على الدامور؟ ولماذا اختاروها لتكون كبش الفداء. من اغتال الدامور؟ ربما هو ذاته الذي اغتال معروف سعد وكمال جنبلاط... من يعلم؟ المأساة على الأرض أشدّ إثارة منها على المسرح أو على الشاشة والروايات التي نرتكب نحن جرائمها ونحبُك عقدها تثير فضولنا وإعجابنا أكثر من تلك التي نشاهدها في أفلام الرعب. عفوًا: أسئلتك أخرجتني عن الموضوع. ألا تريد أن نعود إلى قصتنا؟ لقد سبق وقلت لك ان هذه الرواية ليس فيها من بوليس يتحرّى الأمور سوى أنا وأنت. وأنا وأنت في فمنا ماء.

بدأت الحرب العالمية الأولى في صيف سنة ١٩١٤ فعزل الباب العالي متصرف الجبل المسيحي وأعلنت الأحكام العرفية فأصبح الحاكم العسكري جمال باشا مطلق

والأدوية، ذاع الخبر فهرع بعض الداموريين إلى الشاطئ لملاقاة بحّارة الدارعة الفرنسية. وما ان وصل التقرير إلى الحاكم العثماني حتى أصدر أمرًا بجلب شيخ الدامور ووجهائها إلى عاليه بتهمة الخيانة. فدبّ الرعب في قلوب عيالهم وظنوا أنهم سيرسلون توًا إلى الشنق. لكن المحقق برّأ ساحتهم فسلموا من الإعدام. والجدير بالذكر أن تخليص أعيان الدامور من مشنقة جمال باشا يعود به الفضل إلى درزيين وسنّي: الدرزيان هما الأمير عادل ارسلان قائمقام المنطقة والأمير شكيب وقد توسطا لدى السلطة العثمانية من أجل إخلاء سبيل الداموريين والسني هو المدعو أحمد نجم من بعاصير الذي أقسم اليمين بأنهم لم يتصلوا ببحارة الدارعة الفرنسية: وهذه أيضًا مأثرة تضاف إلى سجل مآثر الطائفية في الشوف. وهكذا عاش الداموريون واللبنانيون عامة طيلة مدة الحرب وهم يقاسون الجوع والخوف والاستبداد. كان قنصل فرنسا يوم وقوع الحرب قد صرّح قبل مغادرته بيروت أنه لن يمضي خمسة عشر يومًا إلا وتخفق رايات الحلفاء على هذه البلاد. فشاع الخبر وبقي الناس ينتظرون طيلة أربع سنوات نهاية الخمسة عشر يومًا.

عندما أشرفت سنة ١٩١٧ على النهاية، اخترق الحلفاء بقيادة الجنرال اللنبي خط الدفاع التركي قرب غزّة وزحفوا إلى فلسطين فاحتلوها وفي سنة ١٩١٨ قضوا نهائيًا على مقاومة أعدائهم، فما أقبل شهر تشرين الأول حتى دخل جيش الحلفاء صيدا ومنها توجّه إلى الدامور فهرع الناس لملاقاته بالأهازيج والأناشيد وقد لاحظ قائد الحملة الإنكليزي بشيء من الامتعاض أن أولاد الدامور يستقبلون جيشه بالأناشيد الفرنسية. ما العمل مع هؤلاء الموارنة يصرخون في وجه الإنكليز: Vive la France! لماذا لا يعيّشون الحلفاء؟ ما العمل مع هؤلاء الموارنة هل من دواء يشفيهم من عشقهم العذري لفرنسا؟ ربما بجعلهم تحت الانتداب الفرنسي... وهذا ما حصل.

خرجت الدامور من محنة الحرب العالمية الأولى منهوكة، مثخنة بالجراح وقد فقدت أكثر من نصف سكانها. قبل نشوب الحرب كان عدد الداموريين يفوق الخمسة آلاف، أما عند نهايتها فهبط إلى دون الألفين. لكن حيوية البلدة لم تنضب وسرعان ما قامت تنفض عنها غبار النكبة وتعمل على استعادة نشاطها وازدهارها وإليك هذا الوصف الموجز لحالة الدامور في سنة ١٩٢٧ كما ورد في كتاب «قاموس لبنان»[٧١]:

«الدامور تابعة مديرية الشويفات من محافظة الشوف سكانها ٢١٦١ منهم

٧١) قاموس لبنان، تأليف وديع نقولا حنا، صدر سنة ١٩٢٧.

والأدوية، ذاع الخبر فهرع بعض الداموريين إلى الشاطئ لملاقاة بحّارة الدارعة الفرنسية. وما ان وصل التقرير إلى الحاكم العثماني حتى أصدر أمرًا بجلب شيخ الدامور ووجهائها إلى عاليه بتهمة الخيانة. فدبّ الرعب في قلوب عيالهم وظنوا أنهم سيرسلون توًا إلى الشنق. لكن المحقق برّأ ساحتهم فسلموا من الإعدام. والجدير بالذكر أن تخليص أعيان الدامور من مشنقة جمال باشا يعود به الفضل إلى درزيين وسنّي: الدرزيان هما الأمير عادل ارسلان قائمقام المنطقة والأمير شكيب وقد توسطا لدى السلطة العثمانية من أجل إخلاء سبيل الداموريين والسني هو المدعو أحمد نجم من بعاصير الذي أقسم اليمين بأنهم لم يتصلوا ببحارة الدارعة الفرنسية: وهذه أيضًا مأثرة تضاف إلى سجل مآثر الطائفية في الشوف. وهكذا عاش الداموريون واللبنانيون عامة طيلة مدة الحرب وهم يقاسون الجوع والخوف والاستبداد. كان قنصل فرنسا يوم وقوع الحرب قد صرّح قبل مغادرته بيروت أنه لن يمضي خمسة عشر يومًا إلا وتخفق رايات الحلفاء على هذه البلاد. فشاع الخبر وبقي الناس ينتظرون طيلة أربع سنوات نهاية الخمسة عشر يومًا.

عندما أشرفت سنة ١٩١٧ على النهاية، اخترق الحلفاء بقيادة الجنرال اللنبي خط الدفاع التركي قرب غزّة وزحفوا إلى فلسطين فاحتلوها وفي سنة ١٩١٨ قضوا نهائيًا على مقاومة أعدائهم، فما أقبل شهر تشرين الأول حتى دخل جيش الحلفاء صيدا ومنها توجّه إلى الدامور فهرع الناس لملاقاته بالأهازيج والأناشيد وقد لاحظ قائد الحملة الإنكليزي بشيء من الامتعاض أن أولاد الدامور يستقبلون جيشه بالأناشيد الفرنسية. ما العمل مع هؤلاء الموارنة يصرخون في وجه الإنكليز: !Vive la France لماذا لا يعيّشون الحلفاء؟ ما العمل مع هؤلاء الموارنة هل من دواء يشفيهم من عشقهم العذري لفرنسا؟ ربما بجعلهم تحت الانتداب الفرنسي... وهذا ما حصل.

خرجت الدامور من محنة الحرب العالمية الأولى منهوكة، مثخنة بالجراح وقد فقدت أكثر من نصف سكانها. قبل نشوب الحرب كان عدد الداموريين يفوق الخمسة آلاف، أما عند نهايتها فهبط إلى دون الألفين. لكن حيوية البلدة لم تنضب وسرعان ما قامت تنفض عنها غبار النكبة وتعمل على استعادة نشاطها وازدهارها وإليك هذا الوصف الموجز لحالة الدامور في سنة ١٩٢٧ كما ورد في كتاب «قاموس لبنان»[٧١]:

«الدامور تابعة مديرية الشويفات من محافظة الشوف سكانها ٢١٦١ منهم

---

٧١) قاموس لبنان، تأليف وديع نقولا حنا، صدر سنة ١٩٢٧.

ولا بدّ أن نذكر هنا شخصية لمعت في عالم السياسة، أعني النائب ووزير التربية سابقًا المرحوم جورج عقل.

هذه الشهادة المعطاة من شخص غريب عن البلدة تثبت أن بلدة الحرير كانت في طليعة النهضة الفكرية والاعلامية في تلك الحقبة وأن أبناءها أتقنوا صناعة القلم والكلمة كما أتقنوا صناعة الحرير، والحق يقال أنّك قلّما تجد ليس فقط في لبنان بل في العالم كله بلدة بهذا الحجم المتواضع تقدم للوطن إنتاجًا من هذا العيار في حقول الزراعة والصناعة والصحافة والتربية.

إني لا أحب الإطناب، إنّما هذه كلمة حق يجب أن تقال على ضريح الدامور بعد أن شوّهوا وجهها ولوَّثوا سمعتها وداسوا جثث أبنائها بالنّعال.

ماذا جنت الدامور من ثمار الانتداب الفرنسي؟ لم تجنِ ثمرة تهليلها وعشقها المفرط إلا مرارة وخيبة: كساد موسم الحرير، زيادة الضرائب وبالنهاية تحويل الدامور إلى ترسانة وجعلها كبش الفداء عن العاصمة بيروت في سنة ١٩٤١. مشروع عمراني واحد[٧٥] تحقق في تلك الحقبة لكنه تحقق بهمة أحد أبناء البلدة دون مؤازرة الدولة ألا وهو إنارة الدامور بالكهرباء وقد قام بتمويل المشروع المرحوم الشيخ يوسف فرحات الغريِّب بعد أن رهن قسمًا من أملاكه ليستلف المال اللازم.

المورد الرئيسي في حياة الدامور الاقتصادية أخذ يشحّ وما إن أقبلت سنة ١٩٢٩ حتى استفحلت الأزمة. موجة من الكساد اجتاحت الأسواق في أوروبا وفي أميركا بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٣٣[٧٦] ولم تكن المؤسسات الدولية قد احتاطت للأمر فسادت البلبلة وأعلنت آلاف المتاجر إفلاسها حتى أن بعض الاقتصاديين وجدوا في ذلك تحقيقًا لنبوءة كارل ماركس الشهيرة القائلة: «إن أزمة عاتية سوف تكتسح النظام الرأسمالي وتزيله من الوجود». أما لبنان فكان، كما أشرنا سابقًا، يعتمد على صناعة الحرير بنسبة تعادل ٦٠ بالماية من دخله القومي. كان في الجبل على أيام ازدهار الحرير تسعة آلاف خلقين تحلّ نحو ٥ ملايين كيلو شرانق ويشتغل عليها نحو ١٢ ألف عامل. قبل نشوب

---

٧٥) يضاف إلى هذا المشروع مد الباطون في أقنية الري بفضل قرض مالي استحصلت عليه بلدية الدامور برئاسة السيد جوزيف هيكل الغريب من حكومة الرئيس شارل دباس.

٧٦) سنة ١٩٣٠ سمّوها في أميركا سنة الكساد الأعظم إذ تدهورت الأسعار خصوصًا سعر الحليب إلى حدّ أنه لم يعد يكفي المزارع لحلب بقراته.

ولا بدّ أن نذكر هنا شخصية لمعت في عالم السياسة، أعني النائب ووزير التربية سابقًا المرحوم جورج عقل.

هذه الشهادة المعطاة من شخص غريب عن البلدة تثبت أن بلدة الحرير كانت في طليعة النهضة الفكرية والاعلامية في تلك الحقبة وأن أبناءها أتقنوا صناعة القلم والكلمة كما أتقنوا صناعة الحرير، والحق يقال أنّك قلّما تجد ليس فقط في لبنان بل في العالم كله بلدة بهذا الحجم المتواضع تقدم للوطن إنتاجًا من هذا العيار في حقول الزراعة والصناعة والصحافة والتربية.

إني لا أحب الإطناب، إنّما هذه كلمة حق يجب أن تقال على ضريح الدامور بعد أن شوّهوا وجهها ولوّثوا سمعتها وداسوا جثث أبنائها بالنّعال.

ماذا جنت الدامور من ثمار الانتداب الفرنسي؟ لم تجنِ ثمرة تهليلها وعشقها المفرط إلا مرارة وخيبة: كساد موسم الحرير، زيادة الضرائب وبالنهاية تحويل الدامور إلى ترسانة وجعلها كبش الفداء عن العاصمة بيروت في سنة ١٩٤١. مشروع عمراني واحد[٧٥] تحقق في تلك الحقبة لكنه تحقق بهمة أحد أبناء البلدة دون مؤازرة الدولة ألا وهو إنارة الدامور بالكهرباء وقد قام بتمويل المشروع المرحوم الشيخ يوسف فرحات الغريِّب بعد أن رهن قسمًا من أملاكه ليستلف المال اللازم.

المورد الرئيسي في حياة الدامور الاقتصادية أخذ يشحّ وما إن أقبلت سنة ١٩٢٩ حتى استفحلت الأزمة. موجة من الكساد اجتاحت الأسواق في أوروبا وفي أميركا بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٣٣[٧٦] ولم تكن المؤسسات الدولية قد احتاطت للأمر فسادت البلبلة وأعلنت آلاف المتاجر إفلاسها حتى أن بعض الاقتصاديين وجدوا في ذلك تحقيقًا لنبوءة كارل ماركس الشهيرة القائلة: «إن أزمة عاتية سوف تكتسح النظام الرأسمالي وتزيله من الوجود». أما لبنان فكان، كما أشرنا سابقًا، يعتمد على صناعة الحرير بنسبة تعادل ٦٠ بالماية من دخله القومي. كان في الجبل على أيام ازدهار الحرير تسعة آلاف خلقين تحلّ نحو ٥ ملايين كيلو شرانق ويشتغل عليها نحو ١٢ ألف عامل. قبل نشوب

---

٧٥) يضاف إلى هذا المشروع مد الباطون في أقنية الري بفضل قرض مالي استحصلت عليه بلدية الدامور برئاسة السيد جوزيف هيكل الغريب من حكومة الرئيس شارل دباس.

٧٦) سنة ١٩٣٠ سمّوها في أميركا سنة الكساد الأعظم إذ تدهورت الأسعار خصوصًا سعر الحليب إلى حدّ أنه لم يعد يكفي المزارع لحلب بقراته.

الأيّام وإذا بهم يخترعون أسلوبًا ناجحًا لمداواة الحاضر وضمان المستقبل في آن واحد، وهو أن يزرعوا موز «ويخمّسوا» بليمون[٧٧] وهكذا بدأ الداموريون يقلعون شجرتهم المفضّلة طاوين معها صفحة مجيدة من تاريخهم، لكنّهم في أغلب الأحيان كانوا يتركون حوالى بستان الموز حزامًا من التوت كي يربّوا عليه «شكاره» أي خمسة أو ستة أطباق دود حرير، علّهم لا يقطعون شعرة معاوية مع الخليلة القديمة. سنة، سنتان وإذا بسهل الدامور يرتدي حلّة جديدة، حلّة لا تزال خضراء، إنما اخضرارها تغير وفي التغيُّر إشراقة أمل. انطوى عهد التوت والحرير فانتقل الناس من حضارة أصيلة إلى تحضُّر مريب: تطوَّرت العادات والأخلاق وأساليب المعيشة. كل شيء تغيَّر بتغيُّر الاقتصاد: السَكَن، فرش البيوت، تربية الأولاد، وسائل النقل والتنوير... أتسمح بأت نتوقف قليلاً ونقارن ما بين دامور التوتة ودامور الموزة؟

في عهد التوت كان العمل الجدّي يقتصر على فترة الموسم أي «شيل القز» وقطف الشرانق وهذا كلّه لا يستغرق أكثر من أربعين يومًا[٧٨] فماذا يعمل إبن الدامور بما تبقى من أيام السنة؟ عناية الأرض متروكة للشريك. على الشريك أن يحرث ويسقي ويقلّم الشجر. المالك يقدّم له المسكن والسماد ويعطيه ربع الغلّة وبوسع الشريك أيضًا أن يحسّن دخله بتربية الدواجن أو باقتناء دابَّة. الحمار والجمل كانا وسيلة النقل الأكثر انتشارًا والمكاري أو الجمَّال كانا ركنين من أركان اقتصاد الضيعة. البروليتاري الذي لا يملك قيراطًا من الأرض لا يعاني من أزمة البطالة فالعمل متوفّر للجميع في مصانع حلّ الحرير وكثيرون من الغرباء نزحوا إلى الدامور ليرتزقوا من مصانعها. أما البورجوازي الصغير صاحب كدنه[٧٩] الأرض أو الكدنتين أو الثلاث فكيف ينفق وقته؟ قبل نشوب أزمة الحرير (سنة ١٩٢٩ – ١٩٣٠) كان أصغر ملاك في سهل الدامور يعتبر نفسه «ذلك السلطان المخفي» الذي يتحدّث عنه المثل[٨٠]. مهما ضاقت رقعة أرضه، فمردودها يكفي لسد مصاريف البيت. الحياة بسيطة والحاجيات رخيصة ومؤونة العائلة مؤمّنة لسنة على الأقل: الزيت، الزيتون، السمن، القورما، والكشك والتين المطبوخ والزبيب والجوز

---

٧٧) أي أن يجعلوا الليمون يتخلّل الموز بمعدّل ليمونة واحدة كل خمسة أذرع.
٧٨) شهر أيار ونحو أسبوع من حزيران. وكان بعضهم يربون موسمًا ثانيًا جزئيًا في الخريف، لكن ورق التوت التشريني لم يكن يعطي النتيجة الجيّدة التي يعطيها الرّبيعي.
٧٩) الكدنة نحو أربعة آلاف متر مربّع.
٨٠) «فلاّح مكفي سلطان مخفي».

الأيّام وإذا بهم يخترعون أسلوبًا ناجحًا لمداواة الحاضر وضمان المستقبل في آن واحد، وهو أن يزرعوا موز «ويخمّسوا» بليمون[٧٧] وهكذا بدأ الداموريون يقلعون شجرتهم المفضّلة طاوين معها صفحة مجيدة من تاريخهم، لكنّهم في أغلب الأحيان كانوا يتركون حوالى بستان الموز حزامًا من التوت كي يربّوا عليه «شكاره» أي خمسة أو ستة أطباق دود حرير، علّهم لا يقطعون شعرة معاوية مع الخليلة القديمة. سنة، سنتان وإذا بسهل الدامور يرتدي حلّة جديدة، حلّة لا تزال خضراء، إنما اخضرارها تغير وفي التغيُّر إشراقة أمل. انطوى عهد التوت والحرير فانتقل الناس من حضارة أصيلة إلى تحضُّر مريب: تطوَّرت العادات والأخلاق وأساليب المعيشة. كل شيء تغيَّر بتغيُّر الاقتصاد: السَكَن، فرش البيوت، تربية الأولاد، وسائل النقل والتنوير... أتسمح بأت نتوقف قليلاً ونقارن ما بين دامور التوتة ودامور الموزة؟

في عهد التوت كان العمل الجدّي يقتصر على فترة الموسم أي «شيل القز» وقطف الشرانق وهذا كلّه لا يستغرق أكثر من أربعين يومًا[٧٨] فماذا يعمل إبن الدامور بما تبقى من أيام السنة؟ عناية الأرض متروكة للشريك. على الشريك أن يحرث ويسقي ويقلّم الشجر. المالك يقدّم له المسكن والسماد ويعطيه ربع الغلّة وبوسع الشريك أيضًا أن يحسّن دخله بتربية الدواجن أو باقتناء دابّة. الحمار والجمل كانا وسيلة النقل الأكثر انتشارًا والمكاري أو الجمّال كانا ركنين من أركان اقتصاد الضيعة. البروليتاري الذي لا يملك قيراطًا من الأرض لا يعاني من أزمة البطالة فالعمل متوفّر للجميع في مصانع حلّ الحرير وكثيرون من الغرباء نزحوا إلى الدامور ليرتزقوا من مصانعها. أما البورجوازي الصغير صاحب كدنه[٧٩] الأرض أو الكدنتين أو الثلاث فكيف ينفق وقته؟ قبل نشوب أزمة الحرير (سنة ١٩٢٩ – ١٩٣٠) كان أصغر ملاك في سهل الدامور يعتبر نفسه «ذلك السلطان المخفي» الذي يتحدّث عنه المثل[٨٠]. مهما ضاقت رقعة أرضه، فمردودها يكفي لسد مصاريف البيت. الحياة بسيطة والحاجيات رخيصة ومؤونة العائلة مؤمّنة لسنة على الأقل: الزيت، الزيتون، السمن، القورما، والكشك والتين المطبوخ والزبيب والجوز

---

٧٧) أي أن يجعلوا الليمون يتخلّل الموز بمعدّل ليمونة واحدة كل خمسة أذرع.

٧٨) شهر أيار ونحو أسبوع من حزيران. وكان بعضهم يربون موسمًا ثانيًا جزئيًا في الخريف، لكن ورق التوت التشريني لم يكن يعطي النتيجة الجيّدة التي يعطيها الرّبيعي.

٧٩) الكدنة نحو أربعة آلاف متر مربّع.

٨٠) «فلاّح مكفي سلطان مخفي».

الموزة بالأصل هي نبتة البلاد الحارّة وتوطينها على سواحل البحر المتوسط ليس بالشيء اليسير بل إنّه يتطلّب أرضًا واقية من الأرياح ويستوجب عناية خاصة ومستمرة: تسميد، نكش الأرض ثلاث أو أربع مرّات، توحيد الفروخ، سقي كل خمسة عشر يومًا في الطقس الحار ثمّ قلع الموز العتيق كل بضع سنوات واستبداله بنصب جديد. برع المزارع الداموري في هذا الفن كما فعل من قبل حين تربية دود الحرير، لكنّه، بالرّغم من براعته وكدّه وجدّه، لم يتمكّن من كسر الطوق الاقتصادي المفروض من قبل الدولة المنتدبة على بلاد مقدّراتها ليست بيدها... البحبوحة والرخاء فقدهما المزارع لمدّة طويلة والسبب في ذلك يعود إلى تدنّي أسعار المنتجات الزراعية وارتفاع أسعار البضائع المستوردة. الأولوية في الحقل الاقتصادي كانت تعطى، لا لإنماء البلاد وازدهارها، بل لتسديد نفقات جيش الانتداب ومصاريف المفوّضية وتنشيط الشركات الاحتكاريّة[٨٢] وفتح الأسواق أمام البضائع الأجنبيّة. وكانت الدولة المنتدبة قد ربطت قيمة العملة الوطنيّة بالفرنك الفرنسي فبدأ الفرنك يتدهور جارًّا معه عملتنا التعيسة. أتذكر عُمَر الزعني؟

– بلا شك، كلّنا غنّينا ونحن صغار «بدنا بحرية يا ريّس... البحر كبير، يا ريّس»... عمر الزعني كان فعلاً شاعر تلك الحقبة التاريخية المليئة بالمفاجآت وخيبات الأمل.

– إذن لا بدّ أنّك تذكر طقطوقته المشهورة: «حاسب، يا فرنك! يا فرنك حاسب»!... رطل الموز الأخضر كان سعره في تلك الأيّام يتراوح بين ١٠ غروش و ١٥ غرشًا وغلّة كدنة الأرض معدّلها الوسط نحو ٢٥ قنطارًا أي أن مردودها السنوي يقدّر بنحو ثلاثماية ليرة وهذا المبلغ زهيد جدًا بالنسبة لمتطلّبات المعيشة فالأجيال الطّالعة أخذت تطالب بمزيد من الرفاهية وتصر على مجاراة العصر في كل مظاهره: الراديو والثلاجة والسيارة الخصوصية أصبحت من ضروريات الحياة، وصار الشروال يخجل من الظهور أمام البنطلون، فاختلّ التوازن بين الواردات والنفقات ونزل صاحب الكدنة والكدنتين إلى طبقة المعوزين «حاسب، يا فرنك»! الفرنك يتدهور واقتصاد بلادنا يتدحرج برفقته إلى المنحدر ومستوى المعيشة يرتفع سريعًا بفضل تدفّق منتجات الصناعة الغربية، عندئذٍ اضطرّ البورجوازي الصغير «أبو كدنة أو كدنتين» أن يفتّش عن مورد ثانٍ

٨٢) شركة مصرف سوريا ولبنان، شركة المرفأ، شركة كهرباء بيروت، شركة مياه بيروت، شركة راديو الشرق، شركة السكة الحديدية، إلخ...

الموزة بالأصل هي نبتة البلاد الحارّة وتوطينها على سواحل البحر المتوسط ليس بالشيء اليسير بل إنّه يتطلّب أرضًا واقية من الأرياح ويستوجب عناية خاصة ومستمرة: تسميد، نكش الأرض ثلاث أو أربع مرّات، توحيد الفروخ، سقي كل خمسة عشر يومًا في الطقس الحار ثمّ قلع الموز العتيق كل بضع سنوات واستبداله بنصب جديد. برع المزارع الداموري في هذا الفن كما فعل من قبل حين تربية دود الحرير، لكنّه، بالرّغم من براعته وكدّه وجدّه، لم يتمكّن من كسر الطوق الاقتصادي المفروض من قبل الدولة المنتدبة على بلاد مقدّراتها ليست بيدها... البحبوحة والرخاء فقدهما المزارع لمدّة طويلة والسبب في ذلك يعود إلى تدنّي أسعار المنتجات الزراعية وارتفاع أسعار البضائع المستوردة. الأولوية في الحقل الاقتصادي كانت تعطى، لا لإنماء البلاد وازدهارها، بل لتسديد نفقات جيش الانتداب ومصاريف المفوّضية وتنشيط الشركات الاحتكاريّة[٨٢] وفتح الأسواق أمام البضائع الأجنبيّة. وكانت الدولة المنتدبة قد ربطت قيمة العملة الوطنيّة بالفرنك الفرنسي فبدأ الفرنك يتدهور جارًّا معه عملتنا التعيسة. أتذكر عُمَر الزعني؟

– بلا شك، كلّنا غنّينا ونحن صغار «بدنا بحرية يا ريّس... البحر كبير، يا ريّس»... عمر الزعني كان فعلاً شاعر تلك الحقبة التاريخية المليئة بالمفاجآت وخيبات الأمل.

– إذن لا بدّ أنّك تذكر طقطوقته المشهورة: «حاسب، يا فرنك! يا فرنك حاسب»!... رطل الموز الأخضر كان سعره في تلك الأيّام يتراوح بين ١٠ غروش و ١٥ غرشًا وغلّة كدنة الأرض معدّلها الوسط نحو ٢٥ قنطارًا أي أن مردودها السنوي يقدّر بنحو ثلاثماية ليرة وهذا المبلغ زهيد جدًا بالنسبة لمتطلّبات المعيشة فالأجيال الطّالعة أخذت تطالب بمزيد من الرفاهية وتصر على مجاراة العصر في كل مظاهره: الراديو والثلاجة والسيارة الخصوصية أصبحت من ضروريات الحياة، وصار الشروال يخجل من الظهور أمام البنطلون، فاختلّ التوازن بين الواردات والنفقات ونزل صاحب الكدنة والكدنتين إلى طبقة المعوزين «حاسب، يا فرنك»! الفرنك يتدهور واقتصاد بلادنا يتدحرج برفقته إلى المنحدر ومستوى المعيشة يرتفع سريعًا بفضل تدفّق منتجات الصناعة الغربية، عندئذٍ اضطرّ البورجوازي الصغير «أبو كدنة أو كدنتين» أن يفتّش عن مورد ثانٍ

---

٨٢) شركة مصرف سوريا ولبنان، شركة المرفأ، شركة كهرباء بيروت، شركة مياه بيروت، شركة راديو الشرق، شركة السكة الحديدية، إلخ...

– الداموري بدمه مزارع، يحب الأرض ويحب أن يأكل من ثمار أرضه وتعبه. فلمّا لم تعد أرضه تكفيه لجأ إلى استئجار مزيد من الكدنات وبعد إنجاز مشروع القاسمية لري الجنوب، نزحت بعض العائلات الدامورية إلى جهة عدلون والصرفند وصور حيث استوطنت بين الإخوان الشيعة فالداموري لا يشكو من العقدة الطائفية وحيثما حلَّ بين الفلاحين والمزارعين فهو يشعر أنّه بين أهله ولا شكّ أن المزارع الداموري قد ساهم مساهمة ملموسة في تحسين الساحل الجنوبي ورفع قيمة أرضه.

أما المغامرات فقد ركبها بعض الطامحين. لم يجدوا أمامهم في تلك الفترة من القحط المالي، لم يجدوا منفذًا إلى الثروة ورفاهية العيش سوى التهريب. فلجأ بعض الداموريين إلى تهريب الحشيشة والتنباك وغيرهما. التهريب في ذلك الحين كان ردّة الفعل الوطنيّة البديهيّة، كان بمثابة احتجاج من قِبَل المواطن الطموح على سياسة الجمارك التي كادت تجر البلاد إلى الفقر وتغرقها بالبضائع المستوردة.

– عساهم جنوا الثروات الطائلة جزاء طموحهم ووطنيّتهم؟

– لم يجنوا إلا الإفلاس والسجن. فالجمرك كان لهم بالمرصاد وكانت أحكامه بالغة القساوة. ففي إحدى الليالي العاصفة هجم خفراء الجمرك بغتة على شاطئ الدامور وقبضوا على المهربين بالجرم المشهود فاحتجزوا البضائع والسفينة ثم حكمت المحكمة على المهربين بغرامة نقدية قدرها مليون ليرة في حين لم تكن ميزانية الدولة اللبنانية تتجاوز العشرة ملايين ولما عجزوا عن الدفع أدخلوا السجن.

– هذا على الصعيد الاقتصادي، وعلى الصعيد السياسي كيف كان الطقس؟

– «البحر كبير، يا ريس»! كما يقول الزعني. الطقس غير مستقرّ والبحر هائج ومائج...

– والبحرية؟ أكانت زنودهم قويّة ونيّتهم صافية؟

– والبحرية تارة يصارعون الأمواج وتارة يتصارعون فيما بينهم تاركين للأمواج مسؤولية قيادة الزورق... الوضع الاقتصادي المتدهور وتسلّط المفوّض السامي ومستشاريه على الدوائر الحكومية جعلا شرفاء المواطنين يجاهرون باستيائهم. ومن طرائف ما حدث في ظل الانتداب أنه في ربيع سنة ١٩٣٢ رشّح النوّاب بمن فيهم النواب الموارنة وبمن فيهم الرئيس إميل إدّه، رشّحوا لرئاسة الجمهورية خلفًا لشارل دبّاس الشيخ

– الداموري بدمه مزارع، يحب الأرض ويحب أن يأكل من ثمار أرضه وتعبه. فلمّا لم تعد أرضه تكفيه لجأ إلى استئجار مزيد من الكدنات وبعد إنجاز مشروع القاسمية لري الجنوب، نزحت بعض العائلات الدامورية إلى جهة عدلون والصرفند وصور حيث استوطنت بين الإخوان الشيعة فالداموري لا يشكو من العقدة الطائفية وحيثما حلَّ بين الفلاحين والمزارعين فهو يشعر أنّه بين أهله ولا شكّ أن المزارع الداموري قد ساهم مساهمة ملموسة في تحسين الساحل الجنوبي ورفع قيمة أرضه.

أما المغامرات فقد ركبها بعض الطامحين. لم يجدوا أمامهم في تلك الفترة من القحط المالي، لم يجدوا منفذًا إلى الثروة ورفاهية العيش سوى التهريب. فلجأ بعض الداموريين إلى تهريب الحشيشة والتنباك وغيرهما. التهريب في ذلك الحين كان ردّة الفعل الوطنيّة البديهيّة، كان بمثابة احتجاج من قِبَل المواطن الطموح على سياسة الجمارك التي كادت تجر البلاد إلى الفقر وتغرقها بالبضائع المستوردة.

– عساهم جنوا الثروات الطائلة جزاء طموحهم ووطنيّتهم؟

– لم يجنوا إلا الإفلاس والسجن. فالجمرك كان لهم بالمرصاد وكانت أحكامه بالغة القساوة. ففي إحدى الليالي العاصفة هجم خفراء الجمرك بغتة على شاطئ الدامور وقبضوا على المهربين بالجرم المشهود فاحتجزوا البضائع والسفينة ثم حكمت المحكمة على المهربين بغرامة نقدية قدرها مليون ليرة في حين لم تكن ميزانية الدولة اللبنانية تتجاوز العشرة ملايين ولما عجزوا عن الدفع أدخلوا السجن.

– هذا على الصعيد الاقتصادي، وعلى الصعيد السياسي كيف كان الطقس؟

– «البحر كبير، يا ريس»! كما يقول الزعني. الطقس غير مستقرّ والبحر هائج ومائج...

– والبحرية؟ أكانت زنودهم قويّة ونيّتهم صافية؟

– والبحرية تارة يصارعون الأمواج وتارة يتصارعون فيما بينهم تاركين للأمواج مسؤولية قيادة الزورق... الوضع الاقتصادي المتدهور وتسلّط المفوّض السامي ومستشاريه على الدوائر الحكومية جعلا شرفاء المواطنين يجاهرون باستيائهم. ومن طرائف ما حدث في ظل الانتداب أنه في ربيع سنة ١٩٣٢ رشّح النوّاب بمن فيهم النواب الموارنة وبمن فيهم الرئيس إميل إدّه، رشّحوا لرئاسة الجمهورية خلفًا لشارل دبّاس الشيخ

العصبية التي يجتازها لبنان. وفي تلك السنة فتحت معركة عنيفة لخلافة الباشا بين إميل إدّه وبشارة الخوري[٨٥] فانقسم الداموريون مثل غيرهم من أبناء الجبل إلى إدّيّن وخوريين وبدأ سوس الحزبيات السياسية ينخر عقد التضامن بين أبناء البلدة الواحدة.

– أخشى أن تكون أعطيتنا، يا شيخي، صورة غير واقعيّة عن الدامور. أنا أخالفك بالرأي وأعتقد أن العنعنات الحزبية والعصبية القبلية كانت موجودة على زمن أجدادنا وأجداد أجدادنا. ألم يقم مثلاً في أول عهد المعلَّقة تناحر سافر بين آل عون وآل غريِّب؟ ثم بين جبهة العائلات من جهة وتكتّل «الأغراب» كما يسمّونهم؟

– صحيح. لكن الأزمة لم تكن سياسية وكانوا يستعملون لشفائها علاجًا مكفولاً مئة بالمئة.

– وما هو؟

– المصاهرة: تبادل النساء ما بين الأسر المتباغضة. إسمع، يا بني! إن بذور التفكّك والشقاق موجودة في كل زمان، كما أن سوس الحزبيات والعصبيات العائلية يعشعش في كل زاوية من زوايا هذا البلد وأنا أعتقد مع بعض الفلاسفة أن التحاسد والتباغض هما أساس الحياة الاجتماعية[٨٦] لكن إذا كان لا بدّ من الاختيار بين الزواج أو الانتحار أفليس الأفضل أن نتزوّج؟ إن أجدادنا، بالرغم من تحاسدهم وتنافرهم، كانوا يغلّبون الحكمة على الأهواء الطائشة ويجمعون كلمتهم على ما فيه صالح البلدة. ربّما كانوا متخلفين عنا ثقافيًّا، لكنّهم كانوا أصفى عقلاً، لأن حياتهم كانت أبسط وأقرب إلى الطبيعة كما أن فلسفتهم في الحياة كانت أقرب إلى الفطرة. أما اليوم فحالتنا محيِّرة: نحن لا نريد أن نموت ولا نستطيع أن نعيش. الهجر مستحيل والزواج المتبادل محرّم. التقسيم غير وارد والاندماج غير ممكن. التقدّم الحضاري أصبح مرادفًا لمزيد من التعقيد. في لغة الغرب يعبِّرون عن ذلك بكلمة sophistiqué.[٨٧] فالأسلحة لا تكون عصرية إن لم تكن معقّدة وبنيتنا الشعورية كذلك وكذلك إدارات الدولة وصلات المجتمع. أما سمعت بحرب الوردتَيْن[٨٨]؟

---

٨٥) في تلك الدورة فاز إدّه على منافسه بأكثرية صوت واحد: ١٣ ضد ١٢.

٨٦) زعم فرويد Freud في تحليلاته أن أساس المجتمع يرتكز على الجريمة...

٨٧) والكلمة فيها بالأصل معنى التّضليل.

٨٨) La guerre des deux roses

العصبية التي يجتازها لبنان. وفي تلك السنة فتحت معركة عنيفة لخلافة الباشا بين إميل إدّه وبشارة الخوري[٨٥] فانقسم الداموريون مثل غيرهم من أبناء الجبل إلى إدّيين وخوريين وبدأ سوس الحزبيات السياسية ينخر عقد التضامن بين أبناء البلدة الواحدة.

– أخشى أن تكون أعطيتنا، يا شيخي، صورة غير واقعيّة عن الدامور. أنا أخالفك بالرأي وأعتقد أن العنعنات الحزبية والعصبية القبلية كانت موجودة على زمن أجدادنا وأجداد أجدادنا. ألم يقم مثلاً في أول عهد المعلَّقة تناحر سافر بين آل عون وآل غريِّب؟ ثم بين جبهة العائلات من جهة وتكتّل «الأغراب» كما يسمّونهم؟

– صحيح. لكن الأزمة لم تكن سياسية وكانوا يستعملون لشفائها علاجًا مكفولاً مئة بالمئة.

– وما هو؟

– المصاهرة: تبادل النساء ما بين الأسر المتباغضة. إسمع، يا بني! إن بذور التفكّك والشقاق موجودة في كل زمان، كما أن سوس الحزبيات والعصبيات العائلية يعشعش في كل زاوية من زوايا هذا البلد وأنا أعتقد مع بعض الفلاسفة أن التحاسد والتباغض هما أساس الحياة الاجتماعية[٨٦] لكن إذا كان لا بدّ من الاختيار بين الزواج أو الانتحار أفليس الأفضل أن نتزوّج؟ إن أجدادنا، بالرغم من تحاسدهم وتنافرهم، كانوا يغلّبون الحكمة على الأهواء الطائشة ويجمعون كلمتهم على ما فيه صالح البلدة. ربّما كانوا متخلفين عنا ثقافيًّا، لكنّهم كانوا أصفى عقلاً، لأن حياتهم كانت أبسط وأقرب إلى الطبيعة كما أن فلسفتهم في الحياة كانت أقرب إلى الفطرة. أما اليوم فحالتنا محيِّرة: نحن لا نريد أن نموت ولا نستطيع أن نعيش. الهجر مستحيل والزواج المتبادل محرّم. التقسيم غير وارد والاندماج غير ممكن. التقدّم الحضاري أصبح مرادفًا لمزيد من التعقيد. في لغة الغرب يعبِّرون عن ذلك بكلمة sophistiqué.[٨٧] فالأسلحة لا تكون عصرية إن لم تكن معقّدة وبنيتنا الشعورية كذلك وكذلك إدارات الدولة وصلات المجتمع. أما سمعت بحرب الوردتَيْن[٨٨]؟

---

٨٥) في تلك الدورة فاز إدّه على منافسه بأكثرية صوت واحد: ١٣ ضد ١٢.

٨٦) زعم فرويد Freud في تحليلاته أن أساس المجتمع يرتكز على الجريمة...

٨٧) والكلمة فيها بالأصل معنى التّضليل.

٨٨) La guerre des deux roses

الانفجار. فاجتمع العقّال ورأوا أن حسم المشكلة لا يكون إلاّ بالمصاهرة وكان لأحد وجهاء آل الغريِّب ابن وحيد يدعى يوسف، يوسف فرحات، فزوّجوه ابنَة الشيخ الياس لحود عون. وتولّى هو المشيخة على مدى الحياة برضى الفريقين.

*

قررت أن أمضي ليلة ثانية في الدير بصحبة الشيخ لكي ألتقط كل ما بقي في جعبته من ذكريات وتحليلات. أريد أن أزيح الستار. أسعى لوصل الحبل بين الحاضر والماضي. هل في تاريخ البلدة شيء يستوجب هذه التصفية أم هو القدر الغاشم؟ أحاول أن أفهم في سبيل أية قضية أحرقت الدامور منازل وقلوبًا. حالة الشيخ الصحيّة تسوء. أعصابه لن تتحمّل طويلاً الضغط النفساني الذي يعاني منه. كلّما اعترته نوبة، خلتُ أن قلبه سيتوقّف وأنه سيغادر الحياة قبل أن يبوح لنا بمعلوماته كلها. واللغز... اللغز الذي وعدت نفسي بحلّه، أيُطبِق عينيه ويبقيه دفينًا في صدره؟ الحفيد الصغير، سارق البيض، وحده بين الأحفاد يهتم بصحّة جدّه. عندما ينتاب الشيخ عارض الرجفة تتحرّك الشفقة في قلب الصغير، فيأخذ بيد جدّه المتشنّجة ويضمّها إلى صدره ويقبّلها بحرارة ثم يتكمّش بقبضتها ويشدّ عليها كأنّه يخشى أن يفلت الجَدَّ منه ويهجره إلى الأبد.

في الصباح الباكر استفاق الشيخ مذعورًا: «رأيت في منامي السنديانة تشتعل»، قال وهو يرتجف: «لن أدفن في الدامور، يا صاح، لن أدفن في قبر أجدادي... مهما تصارعتُ مع أجَلي، لن أستطيع أن أضبط خفقات قلبي حتى أشاهد الفصل الأخير».

حاولت أن أهدئ روعه ولفّقت خبرًا مفاده أن قضيّة المهجّرين ستحلّ في القريب العاجل وأن المراجع العليا وعدت بأن الداموريين سيعودون إلى بيوتهم في مطلع الأسبوع القادم. فهزّ برأسه وابتسم ابتسامته الكئيبة وأجاب:

– وهل بقي لنا بيوت لنعود إليها؟ لقد نسيت بيتي، نسيت كل شيء. لكني أريد أن أدفن في ظلّ كنيسة مار الياس القديمة. أليس هذا من حقّي؟ أليس من حقوق الإنسان أن يدفن غي بلده وأن يرقد بسلام في قبر أجداده؟ والآن، ذكِّرني، أين وصلنا في حديثنا؟

– لقد حدّثتنا عن حالة الدامور أثناء الحرب العالمية الأولى وعن كساد موسم الحرير وسياسة الجمارك أيام الانتداب... لكنّك لم تشرح لي حتى الآن نظريّتك حول كلمة دامور.

الانفجار. فاجتمع العقّال ورأوا أن حسم المشكلة لا يكون إلاّ بالمصاهرة وكان لأحد وجهاء آل الغريِّب ابن وحيد يدعى يوسف، يوسف فرحات، فزوّجوه ابنَة الشيخ الياس لحود عون. وتولّى هو المشيخة على مدى الحياة برضى الفريقين.

*

قررت أن أمضي ليلة ثانية في الدير بصحبة الشيخ لكي ألتقط كل ما بقي في جعبته من ذكريات وتحليلات. أريد أن أزيح الستار. أسعى لوصل الحبل بين الحاضر والماضي. هل في تاريخ البلدة شيء يستوجب هذه التصفية أم هو القدر الغاشم؟ أحاول أن أفهم في سبيل أية قضية أحرقت الدامور منازل وقلوبًا. حالة الشيخ الصحيّة تسوء. أعصابه لن تتحمّل طويلاً الضغط النفساني الذي يعاني منه. كلّما اعترته نوبة، خلتُ أن قلبه سيتوقّف وأنه سيغادر الحياة قبل أن يبوح لنا بمعلوماته كلها. واللغز... اللغز الذي وعدت نفسي بحلّه، أيُطبِق عينيه ويبقيه دفينًا في صدره؟ الحفيد الصغير، سارق البيض، وحده بين الأحفاد يهتم بصحّة جدّه. عندما ينتاب الشيخ عارض الرجفة تتحرّك الشفقة في قلب الصغير، فيأخذ بيد جدّه المتشنّجة ويضمّها إلى صدره ويقبّلها بحرارة ثم يتكمّش بقبضتها ويشدّ عليها كأنّه يخشى أن يفلت الجَدَّ منه ويهجره إلى الأبد.

في الصباح الباكر استفاق الشيخ مذعورًا: «رأيت في منامي السنديانة تشتعل»، قال وهو يرتجف: «لن أدفن في الدامور، يا صاح، لن أدفن في قبر أجدادي... مهما تصارعتُ مع أجَلي، لن أستطيع أن أضبط خفقات قلبي حتى أشاهد الفصل الأخير».

حاولت أن أهدئ روعه ولفّقت خبرًا مفاده أن قضيّة المهجّرين ستحلّ في القريب العاجل وأن المراجع العليا وعدت بأن الداموريين سيعودون إلى بيوتهم في مطلع الأسبوع القادم. فهزّ برأسه وابتسم ابتسامته الكئيبة وأجاب:

– وهل بقي لنا بيوت لنعود إليها؟ لقد نسيت بيتي، نسيت كل شيء. لكني أريد أن أدفن في ظلّ كنيسة مار الياس القديمة. أليس هذا من حقّي؟ أليس من حقوق الإنسان أن يدفن غي بلده وأن يرقد بسلام في قبر أجداده؟ والآن، ذكِّرني، أين وصلنا في حديثنا؟

– لقد حدّثتنا عن حالة الدامور أثناء الحرب العالمية الأولى وعن كساد موسم الحرير وسياسة الجمارك أيام الانتداب... لكنّك لم تشرح لي حتى الآن نظريّتك حول كلمة دامور.

الجنرال سبيرس، أعلن من وراء حدود فلسطين، عزمه على تحرير لبنان ومنحه الاستقلال.

– إذن استقلال لبنان نبت في أرض فلسطين؟

– نعم، في تلك الأرض الخصبة بالمعجزات... نعم، من الجنوب أتتنا السيادة مع دوي المدافع. بدأ الطيران والأسطول الانكليزي بقصف مراكز عدوّه وبدأت الغارات الجويّة على بيروت فطلب الرئيس نقّاش من الجنرال دنز، طلب بإلحاح أن يعلن بيروت مدينة مفتوحة، فكان له ما طلب وقرّر أركان جيش الجنرال دنز أن يخوضوا المعركة الحاسمة في الدامور. «إذا سقطت الدامور، تنتهي الحرب في لبنان»! انتشر الخبر في كل أرجاء البلاد فاتّجهت أنظار العالم بأسره نحو هذه البلدة الباسلة، وأصبح مصير لبنان ومصير استقلاله رهنًا بسقوط الدامور.

*

أخذت مدفعيّة الجنرال دنز تتمركز على التلال المطلّة من جهة الشرق وأخذت فرقة الهندسة تحفر الخنادق بين صخور التلّة المسماة «الحمرا». وتحصّنت حامية من الجنود في بيوت البلدة بين السكان الأمنيين وعندما اقتربت طلائع جيش العدو من خط الدفاع، نُسِفَت الجسور وانصبّت القذائف ورصاص الرشاشات الثقيلة على كل بقعة يحاول المهاجمون التسلّل إليها وكانت طليعة الجيش المهاجم تتألّف من أوستراليين ومن بعض الديغوليين وقد حاول الأوستراليون عدة مرات اقتحام خط الدفاع وعبور النهر لكنّهم رُدّوا على أعقابهم وتكبّدوا خسائر جسيمة. في هذه الأثناء كان الأسطول الانكليزي يقصف باستمرار وبدون هوادة بلدة الدامور والتلال المشرفة عليها لهجوم المشاة. فتهدّم عدد من المنازل ونزح الداموريون إلى القرى المجاورة.

هربت أنا وعائلتي مشيًا على الأقدام باتجاه بعورته ومنها توجّهنا إلى عبيه، فلحق بنا قصف الأسطول، فلجأنا إلى البنّيه ثم إلى عين كسور ثمّ إلى سوق الغرب وكثيرًا ما نزلنا في بيوت أخواتنا الدروز فكانوا يواسوننا ويضيفوننا أحسن ضيافة. استمرّ حصار الدامور على تلك الصورة نحو شهر حتى أيقن أركان الجيش الانكليزي والديغولي أن الدامور حصن لا يُقتحَم، عندئذٍ لجأوا إلى خطّة التفافية، أوهموا عدوّهم أنهم سيقومون مرّة أخرى باقتحام خط المواجهة من السعديات فحشدوا العساكر وصعّدوا القصف على تحصينات الحمرا فيما تسلّل الأوستراليون من جهة الدلهمية إلى ملتقى النهرين ثم إلى

الجنرال سبيرس، أعلن من وراء حدود فلسطين، عزمه على تحرير لبنان ومنحه الاستقلال.

– إذن استقلال لبنان نبت في أرض فلسطين؟

– نعم، في تلك الأرض الخصبة بالمعجزات... نعم، من الجنوب أتتنا السيادة مع دوي المدافع. بدأ الطيران والأسطول الانكليزي بقصف مراكز عدوّه وبدأت الغارات الجويّة على بيروت فطلب الرئيس نقّاش من الجنرال دنز، طلب بإلحاح أن يعلن بيروت مدينة مفتوحة، فكان له ما طلب وقرّر أركان جيش الجنرال دنز أن يخوضوا المعركة الحاسمة في الدامور. «إذا سقطت الدامور، تنتهي الحرب في لبنان»! انتشر الخبر في كل أرجاء البلاد فاتّجهت أنظار العالم بأسره نحو هذه البلدة الباسلة، وأصبح مصير لبنان ومصير استقلاله رهنًا بسقوط الدامور.

*

أخذت مدفعيّة الجنرال دنز تتمركز على التلال المطلّة من جهة الشرق وأخذت فرقة الهندسة تحفر الخنادق بين صخور التلّة المسماة «الحمرا». وتحصّنت حامية من الجنود في بيوت البلدة بين السكان الأمنيين وعندما اقتربت طلائع جيش العدو من خط الدفاع، نُسِفَت الجسور وانصبّت القذائف ورصاص الرشاشات الثقيلة على كل بقعة يحاول المهاجمون التسلّل إليها وكانت طليعة الجيش المهاجم تتألّف من أوستراليين ومن بعض الديغوليين وقد حاول الأوستراليون عدة مرات اقتحام خط الدفاع وعبور النهر لكنّهم رُدّوا على أعقابهم وتكبّدوا خسائر جسيمة. في هذه الأثناء كان الأسطول الانكليزي يقصف باستمرار وبدون هوادة بلدة الدامور والتلال المشرفة عليها لهجوم المشاة. فتهدّم عدد من المنازل ونزح الداموريون إلى القرى المجاورة.

هربت أنا وعائلتي مشيًا على الأقدام باتجاه بعورته ومنها توجّهنا إلى عبيه، فلحق بنا قصف الأسطول، فلجأنا إلى البنّيه ثم إلى عين كسور ثمّ إلى سوق الغرب وكثيرًا ما نزلنا في بيوت أخواتنا الدروز فكانوا يواسوننا ويضيفوننا أحسن ضيافة. استمرّ حصار الدامور على تلك الصورة نحو شهر حتى أيقن أركان الجيش الانكليزي والديغولي أن الدامور حصن لا يُقتحَم، عندئذٍ لجأوا إلى خطّة التفافية، أوهموا عدوّهم أنهم سيقومون مرّة أخرى باقتحام خط المواجهة من السعديات فحشدوا العساكر وصعّدوا القصف على تحصينات الحمرا فيما تسلّل الأوستراليون من جهة الدلهمية إلى ملتقى النهرين ثم إلى

– أما قلت لنا، يا شيخي، أن معارك ضارية دارت في تلك البقعة منذ فجر التاريخ وأن جحافل المتحاربين كانت دائمًا تتصادم على هذه التلّة الاستراتيجيّة بالذات.

– بكل تأكيد.

– إذن لا بدّ أن يكونوا لقّبوها الحمراء لأنها تخضبت بدماء شعوب كثيرة...

وفجأة لاح في فكري وميض. أيقنت أن مفتاح اللغز أصبح في قبضتي، فتابعت بلهجة الظفر:

– والدامور ألم تنطلق في القديم من جهة الحمراء؟

– نعم: من ضفة النهر الشمالية حيث استوطن الداموريون الأوائل ليرتزقوا من تقطيع المارّة للنهر. كما أن مصر هي عطيّة النيل كذلك الدامور هي عطيّة نهر الدامور.

– ولا يخفى عليك أن عددًا كبيرًا من القرى اللبنانية ينتهي اسمها بهذين الحرفين: الواو والراء، مثل شحرور، كفور، بيسور، عازور وصور ودامور...

– نعم، وأحيانًا تتحوّل إلى صيغة المؤنّث: «وره»، مثل عاقوره، ناقوره، مزموره، شتورا، عينطورا... والأرض العالية، بالسريانية، طور، والمنخفضة: غور، والقاحلة: بور...[٩١] وأورشليم تعني أرض السلام...

– إذن من المحتمل جدًا أن تكون دامور مركبة من لفظتي: دام – ور. أرض المعارك، تلّة الدم المهدور...

– هذا هو اجتهادي، يا بني، إنه مجرّد افتراض أوحاه لنا تاريخ المنطقة، والإسم لا يكفي للدلالة على الأصل، لكنه يلقي بصيص نور على طريق الباحث. سألت يومًا أحد العلماء الضالعين في اللغات السامية عن رأيه في الموضوع، فأجابني أن في أصل الكلمة لَبسًا وأن لفظة «دام» قابلة لتفسيرين فقد تعني الديمومة وقد تعني اللون الأحمر، لون الدم، فإذا صحّ اجتهادي تكون كلمة دامور لقبًا أطلقه الأقدمون على منطقة النهر لغزارة

---

٩١) «كلمة «أور» تعني الشِق في الجبل، المغارة، الوهدة، المُنخفَض. كما تعني أيضًا النور» عن الدكتور أحمد داود (التزوير الجغرافي لأحداث التوراة.) ومدينة أور السورية الأثرية كانت وطن ابراهيم الخليل وقد كشفت مراسلات تل العمارنة أن الأموريين امتدّت سطوتهم على معظم المناطق اللبنانية السورية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

– أما قلت لنا، يا شيخي، أن معارك ضارية دارت في تلك البقعة منذ فجر التاريخ وأن جحافل المتحاربين كانت دائمًا تتصادم على هذه التلّة الاستراتيجيّة بالذات.

– بكل تأكيد.

– إذن لا بدّ أن يكونوا لقّبوها الحمراء لأنها تخضبت بدماء شعوب كثيرة...

وفجأة لاح في فكري وميض. أيقنت أن مفتاح اللغز أصبح في قبضتي، فتابعت بلهجة الظفر:

– والدامور ألم تنطلق في القديم من جهة الحمراء؟

– نعم: من ضفة النهر الشمالية حيث استوطن الداموريون الأوائل ليرتزقوا من تقطيع المارّة للنهر. كما أن مصر هي عطيّة النيل كذلك الدامور هي عطيّة نهر الدامور.

– ولا يخفى عليك أن عددًا كبيرًا من القرى اللبنانية ينتهي اسمها بهذين الحرفين: الواو والراء، مثل شحرور، كفور، بيسور، عازور وصور ودامور...

– نعم، وأحيانًا تتحوّل إلى صيغة المؤنّث: «وره»، مثل عاقوره، ناقوره، مزموره، شتورا، عينطورا... والأرض العالية، بالسريانية، طور، والمنخفضة: غور، والقاحلة: بور...[٩١] وأورشليم تعني أرض السلام...

– إذن من المحتمل جدًا أن تكون دامور مركبة من لفظتي: دام – ور. أرض المعارك، تلّة الدم المهدور...

– هذا هو اجتهادي، يا بني، إنه مجرّد افتراض أوحاه لنا تاريخ المنطقة، والإسم لا يكفي للدلالة على الأصل، لكنه يلقي بصيص نور على طريق الباحث. سألت يومًا أحد العلماء الضالعين في اللغات السامية عن رأيه في الموضوع، فأجابني أن في أصل الكلمة لَبسًا وأن لفظة «دام» قابلة لتفسيرين فقد تعني الديمومة وقد تعني اللون الأحمر، لون الدم، فإذا صحّ اجتهادي تكون كلمة دامور لقبًا أطلقه الأقدمون على منطقة النهر لغزارة

---

٩١) «كلمة «أور» تعني الشِق في الجبل، المغارة، الوهدة، المُنخفَض. كما تعني أيضًا النور» عن الدكتور أحمد داود (التزوير الجغرافي لأحداث التوراة.) ومدينة أور السورية الأثرية كانت وطن ابراهيم الخليل وقد كشفت مراسلات تل العمارنة أن الأموريين امتدّت سطوتهم على معظم المناطق اللبنانية السورية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

من الاستقلال إلى الهجرة
(١٩٤٣-١٩٧٦)

من الاستقلال إلى الهجرة
(١٩٤٣-١٩٧٦)

– في ذكرى استقلال لبنان هذه السنة، كتبت جريدة النهار:

«ليست ذكرى الاستقلال وإنما ذكرى نصف الاستقلال. فقبل ثلاث وثلاثين سنة حقق بشاره الخوري ورياض الصلح الاستقلال السياسي عن فرنسا. ولم يستطع المجتمع اللبناني بعد ذلك أن يحقق النصف الآخر وهو الاستقلال الداخلي من أجل الإنسان، استقلال الإرادة الذاتية والإرادة الاجتماعية فضلاً عن الإرادة القومية...»[٩٢]

فما رأيك، يا شيخي، بهذا القول؟ أصحيح أنّا لا نزال مثل العاشق الأفلاطوني، نفتش عن نصفنا الضائع؟

– صحيح، ولو كانت عبارة «الاستقلال السياسي» في عصر القنابل الهيدروجينية تفتح الباب لكثير من التحفظات، فكل دولة لا تملك مفاعلاً ذريًا أصبحت في أيامنا هذه تشكو من مركّب النقص وتعتبر استقلالها أمانة في عنق الدول العملاقة. والحقيقة هي أنّ الاستقلال منذ البداية كان يتمخَّض بحرب أهلية لأنه بإزاحة نير الوصاية عن رقابنا أتاح للعصبيات الموروثة أن تتحكَّم بمصيرنا فأرجعنا تحت ستار الديمقراطية البرلمانية إلى عهد «المقاطعجية» وأصبحنا، مثل حديثي النعمة، نتباهى بحريتنا وسيادتنا ونحن نجهل معناهما العميق. فانقسمنا، مثلما انقسم أجدادنا إلى قيسي ويمني أو أحمدي وعسّافي أو يزبكي وجنبلاطي، انقسمنا أحزابًا وفرقًا وطوائف تتناظر وتتنابذ.

– ولكن، يا شيخي، لا يخفى عليك أن تعدد الأحزاب وتنافسها على الحكم هو من صلب الحياة الديمقراطية.

– بكل تأكيد. إنما لا يخفى عليك أنت أيضًا أنّ تنافس الأحزاب في البلدان العريقة في ممارسة الديمقراطية يرتكز على أساس مبادئ وبرامج واضحة تملي على الحزبيين حلولاً معينة ازاء المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي تتخبط فيها بلادهم، أما عندنا فشخصية الزعيم هي التي تستقطب الجماهير بقطع النظر عن الحلول. ولماذا؟ لكونه يجسِّد إحدى العصبيات الكامنة في صميم بنيتنا الشعورية فكثيرًا ما تعود شعبية الزعيم ونجاحه لا إلى

٩٢) جريدة النهار – ١٩٧٦/١١/٢٢.

متزلفين إليهم، سائلين اياهم عن حاجاتهم، واعدين بقضائها. لا يسأل احد عن برامج المرشحين الإصلاحية: دوافع الناخب تنحصر في محيطه العائلي وفي الخدمات التي يأمل الحصول عليها من قِبَل المرشح في حال فوزه.

أتعرف قصة «بو كلاب»؟ كان يعيش في الدامور رجل محترم اسمه يوسف ب.ف.، لكن الداموريين أطلقوا عليه لقب «بو كلاب». لماذا؟ لا أدري. وبو كلاب هذا ربّ عائلة كبيرة وبوسعه أن يعطي عددا لا بأس به من الأصوات لصالح اللائحة التي يناصرها. لذلك كان المرشحون يتبارون على اجتذابه فكلما اقترب موعد الانتخابات يتنافسون في دعوته إلى موائدهم ويرفعون الكؤوس على صحته ويتحاشون مناداته بلقبه فلا ينادونه إلا: «خواجه يوسف». «أهلا وسهلا بالخواجه يوسف! – كلنا بأمر الخواجه يوسف... أي خدمة للخواجه يوسف!» فيغتر يوسف بهذه اللياقات المفرطة ولكن عندما تنتهي عملية الاقتراع وتقفل الصناديق يعود الجميع إلى مناداته بلقبه ثم يغوص يوسف في عالم النسيان لمدة أربع سنوات، فلا من يكترث بوجوده ولا من يبرّ بوعوده. في إحدى الدورات أتاه مرشح متملّقًا متزلّفًا كالعادة ولما بادره بالسلام قائلاً: «نهارك سعيد، يا خواجه يوسف!»، أجابه يوسف على الفور: «الآن خواجه يوسف، لكن بعد أن أسقِّط الورقة، فبو كلاب، اصطفلوا ببعضكم وحلّوا عن سمايي!»

أجل سرعان ما اكتشف الداموريون واللبنانيون عامة حقيقة ديمقراطيتهم البرلمانية فقرر أكثر من ٥٠ بالماية منهم أن يقولوا للسياسيين ما قاله بو كلاب: «حلّوا عن سمائنا!»[٩٣] سماء لبنان ما أصفاها وما ألطف نورها لو «يحل» عنها محترفو السياسة!

– أراك تعود دائمًا إلى نغمك المفضل: «المقاطعجيه» ومحترفي السياسة، كما لو كان لك عليهم ثأر.

– ليس لي ثأر على أحد، لكن مطالعتي لتاريخ بلادي كوّنت فيّ قناعة تامة بأنّ الإقطاعية أصل البليَّة. حتى اني بتُّ أؤمن بالتناسخ لما رأيت، وأنا أقلِّب صفحات التاريخ، كيف تتقمَّص روح الإقطاعيين في كل عهد بأجساد ووجوه جديدة. مثل فينيق

---

٩٣) بلغت أعلى نسبة للمقترعين في لبنان ٦٠ بالمئة من أصوات الناخبين. أما المعدل العام فهو يتراوح بين ٤٥ و٥٥ بالمئة [المواطن والانتخابات – نادي تشرين الثاني ١٩٦٨].
– ... وقد ورد في دراسة النادي المذكور: ان نسبة الأصوات المشتراة تبلغ، حسب إحصاءات رسمية، ٣٠ بالمئة من أصل الأصوات المقترعة وفي بعض الأحيان ٤٠ أو ٥٠.

متزلفين إليهم، سائلين اياهم عن حاجاتهم، واعدين بقضائها. لا يسأل احد عن برامج المرشحين الإصلاحية: دوافع الناخب تنحصر في محيطه العائلي وفي الخدمات التي يأمل الحصول عليها من قِبَل المرشح في حال فوزه.

أتعرف قصة «بو كلاب»؟ كان يعيش في الدامور رجل محترم اسمه يوسف ب.ف.، لكن الداموريين أطلقوا عليه لقب «بو كلاب». لماذا؟ لا أدري. وبو كلاب هذا ربّ عائلة كبيرة وبوسعه أن يعطي عددا لا بأس به من الأصوات لصالح اللائحة التي يناصرها. لذلك كان المرشحون يتبارون على اجتذابه فكلما اقترب موعد الانتخابات يتنافسون في دعوته إلى موائدهم ويرفعون الكؤوس على صحته ويتحاشون مناداته بلقبه فلا ينادونه إلا: «خواجه يوسف». «أهلا وسهلا بالخواجه يوسف! – كلنا بأمر الخواجه يوسف... أي خدمة للخواجه يوسف!» فيغتر يوسف بهذه اللياقات المفرطة ولكن عندما تنتهي عملية الاقتراع وتقفل الصناديق يعود الجميع إلى مناداته بلقبه ثم يغوص يوسف في عالم النسيان لمدة أربع سنوات، فلا من يكترث بوجوده ولا من يبرّ بوعوده. في إحدى الدورات أتاه مرشح متملّقًا متزلّفًا كالعادة ولما بادره بالسلام قائلاً: «نهارك سعيد، يا خواجه يوسف!»، أجابه يوسف على الفور: «الآن خواجه يوسف، لكن بعد أن أسقِّط الورقة، فبو كلاب، اصطفلوا ببعضكم وحلّوا عن سمايي!»

أجل سرعان ما اكتشف الداموريون واللبنانيون عامة حقيقة ديمقراطيتهم البرلمانية فقرر أكثر من ٥٠ بالماية منهم أن يقولوا للسياسيين ما قاله بو كلاب: «حلّوا عن سمائنا!»[٩٣] سماء لبنان ما أصفاها وما ألطف نورها لو «يحل» عنها محترفو السياسة!

– أراك تعود دائمًا إلى نغمك المفضل: «المقاطعجيه» ومحترفي السياسة، كما لو كان لك عليهم ثأر.

– ليس لي ثأر على أحد، لكن مطالعتي لتاريخ بلادي كوّنت فيّ قناعة تامة بأنّ الإقطاعية أصل البليَّة. حتى اني بتُّ أؤمن بالتناسخ لما رأيت، وأنا أقلِّب صفحات التاريخ، كيف تتقمَّص روح الإقطاعيين في كل عهد بأجساد ووجوه جديدة. مثل فينيق

---

٩٣) بلغت أعلى نسبة للمقترعين في لبنان ٦٠ بالمئة من أصوات الناخبين. أما المعدل العام فهو يتراوح بين ٤٥ و٥٥ بالمئة [المواطن والانتخابات – نادي تشرين الثاني ١٩٦٨].

– ... وقد ورد في دراسة النادي المذكور: ان نسبة الأصوات المشتراة تبلغ، حسب إحصاءات رسمية، ٣٠ بالمئة من أصل الأصوات المقترعة وفي بعض الأحيان ٤٠ أو ٥٠.

– النزيه يفتقر إلى الحنكة والمحنكون يفتقرون إلى النزاهة: النتيجة هي ذاتها. كان أحد أساتذتنا، ونحن طلاب في جامعة القديس يوسف، يردد أثناء تشريحه لشخصية أدهى سياسي عرفه تاريخ فرنسا، أعني به الوزير تاليران Talleyrand:[٩٤] «يا أولادي، السياسي المحنَّك غالبًا ما يكون كومة قاذورات في جراب من حرير!».

– والوجود الفلسطيني الكثيف...؟

– الوجود الكثيف! لا أحب هذا التعبير ولو كانت الصحف والمجلات درجت على استعماله... الوجود الفلسطيني بنظري لا يشكِّل بيت الداء، إنما صراع الأنظمة عبر القضية الفلسطينية! هنا المصيبة. نعم، إنها مصيبة ابتلينا بها نحن والفلسطينيون على السواء. لكني أتساءل: ألم يكن بالإمكان أن نتوقّى المرض قبل الوقوع فيه؟ وبعد الوقوع ألم يكن بالإمكان معالجة الداء بالعقاقير التقليدية بدلاً من جرّ المريض من غرفة عملية إلى غرفة عملية؟ أيجوز أن نكون ليبراليين إلى هذا الحد؟ أيجوز التماس الشفاء من خلال المجازر الأهلية وانهيار الدولة برمّتها؟ لا أدري ولا أريد أن أدري، لكن الطريقة التي انتقاها دكاترتنا ذكّرتني البيت القائل:

«إذا استغنيت عن داء بداء

فأقتلُ ما أضرّك ما شفاك!»

إني أحلم، يا بني، إني أحلم حينًا بعد حين، أحلم بعالم طردوا منه كل رجال السياسة، كل الرؤساء والملوك، كل الشيوخ، كل النواب وكل زعماء الأحزاب... أحلم بعالم يدير شؤونه مجلس بلدية واحد تخرَّج أعضاؤه من بستان ابيقوروس وقرروا إنقاذ البشرية نهائيًا من الخوف والعذاب... أحلم بسماء لبنان وبصفاء زرقتها... أحلم بكلمة «بو كلاب» وهو يصرخ بوجه السياسيين: «حلّوا عن سمايي!»

*

زلازل وحروب كثيرة نكبت الدامور الباسلة دون أن تنال من حيويتها ومن طاقتها على تجاوز المحنة، دون أن تشتت شمل أبنائها وتفرّق قلوبهم وتبلبل ألسنتهم كما فعلت العصبيات السياسية بعد الاستقلال. نمت الدامور وأخذت تزدهر بسرعة فائقة بعد أن

---

٩٤) تاليران هو صاحب القول المأثور: «لقد أعطى اللّه الكلام للإنسان لكي يفوه بغير ما يضمر».

– النزيه يفتقر إلى الحنكة والمحنكون يفتقرون إلى النزاهة: النتيجة هي ذاتها. كان أحد أساتذتنا، ونحن طلاب في جامعة القديس يوسف، يردد أثناء تشريحه لشخصية أدهى سياسي عرفه تاريخ فرنسا، أعني به الوزير تاليران Talleyrand:[٩٤] «يا أولادي، السياسي المحنَّك غالبًا ما يكون كومة قاذورات في جراب من حرير!».

– والوجود الفلسطيني الكثيف...؟

– الوجود الكثيف! لا أحب هذا التعبير ولو كانت الصحف والمجلات درجت على استعماله... الوجود الفلسطيني بنظري لا يشكِّل بيت الداء، إنما صراع الأنظمة عبر القضية الفلسطينية! هنا المصيبة. نعم، إنها مصيبة ابتلينا بها نحن والفلسطينيون على السواء. لكني أتساءل: ألم يكن بالإمكان أن نتوقّى المرض قبل الوقوع فيه؟ وبعد الوقوع ألم يكن بالإمكان معالجة الداء بالعقاقير التقليدية بدلاً من جرّ المريض من غرفة عملية إلى غرفة عملية؟ أيجوز أن نكون ليبراليين إلى هذا الحد؟ أيجوز التماس الشفاء من خلال المجازر الأهلية وانهيار الدولة برمّتها؟ لا أدري ولا أريد أن أدري، لكن الطريقة التي انتقاها دكاترتنا ذكّرتني البيت القائل:

«إذا استغنيت عن داء بداء

فأقتلُ ما أضرّك ما شفاك!»

إني أحلم، يا بني، إني أحلم حينًا بعد حين، أحلم بعالم طردوا منه كل رجال السياسة، كل الرؤساء والملوك، كل الشيوخ، كل النواب وكل زعماء الأحزاب... أحلم بعالم يدير شؤونه مجلس بلدية واحد تخرَّج أعضاؤه من بستان ابيقوروس وقرروا إنقاذ البشرية نهائيًا من الخوف والعذاب... أحلم بسماء لبنان وبصفاء زرقتها... أحلم بكلمة «بو كلاب» وهو يصرخ بوجه السياسيين: «حلّوا عن سمايي!»

*

زلازل وحروب كثيرة نكبت الدامور الباسلة دون أن تنال من حيويتها ومن طاقتها على تجاوز المحنة، دون أن تشتت شمل أبنائها وتفرّق قلوبهم وتبلبل ألسنتهم كما فعلت العصبيات السياسية بعد الاستقلال. نمت الدامور وأخذت تزدهر بسرعة فائقة بعد أن

---

٩٤) تاليران هو صاحب القول المأثور: «لقد أعطى اللّه الكلام للإنسان لكي يفوه بغير ما يضمر».

وقد ساهمت السينما والتلفزيون مساهمة هائلة في دعوة الأجيال الطالعة إلى نبذ القناعات التقليدية وانتزاع حقّها بخيرات المجتمع مهما ساءت الوسيلة. فتفشّت أعمال السلب والسطو والخطف.

٣) انتشار الأحزاب السياسية:

أدرك السياسيون الفائدة العظمى التي يستطيعون أن يجنوها من احتواء الشبان واستخدام ديناميتهم الجيّاشة لترسيخ قواعدهم الشعبية وتحقيق أغراضهم. فبثوا الدعايات ورفعوا الشعارات التي من شأنها أن تستغوي الشبيبة وتثير حماسها وكثيرًا ما أتّخذوا دعاة لأحزابهم في الأوساط الطلابية فريقًا من مديري المدارس وأساتذتها فأقبل الجيل الطالع على الانخراط في المنظمات على اختلاف أهدافها. فالمراهقون والشبان يجدون في انضمامهم إلى الأحزاب قضاء حاجة مادية وحاجة عاطفية: مادية، لأن الحزب بكل ما له من ثقل سياسي واجتماعي يساعد المنتمين مساعدة فعّالة على شقّ طريقهم في الحياة. أما على الصعيد العاطفي فإن شخصية الشاب أو المراهق وهي عادة شخصية حائرة، مائجة، سريعة الانفعال، تجد هذه الشخصية في الانتماء الحزبي عامل انفتاح وانشراح وطمأنينة لم تعد تجده في جوّ العائلة العصرية. فالانتماء الحزبي يتيح للمنتمين تجاوز الإطار العائلي أو الإقليمي الضيق ويردم الحفرة الفاصلة بين الطبقات ويضمّ الفرد إلى جماعة كبيرة أعضاؤها كلهم يؤمنون إيمانه وينهجون نهجه ويعضدونه في الشدائد. الأكثرية من شباب اليوم باتت ترفض أن تعيش «بذاتها ولذاتها» فهي بحاجة إلى تحقيق ذاتها عبر شخص آخر أو عبر جمعية أو منظمة...

انتشرت الأحزاب السياسية على مختلف ألوانها في أوساط الشبيبة الدامورية في الستينات وكان انتشارها أسرع وأشمل بين أبناء الأحياء الشعبية. ومما يدعو إلى الاستغراب أن الأكثرية من الشبان الداموريين الموالين لليمين المحافظ ينتسبون إلى الطبقة الكادحة أو إلى البورجوازية الصغيرة بينما نرى عددًا من أولاد العائلات الثرية يستميلهم اليسار.

– صحيح. كيف تعلل هذا السلوك الذي يبدو مخالفًا لكل قواعد المنطق؟

– أعتقد أن لهذا السلوك سببين رئيسيين: الأول كون العصبية الطائفية التي تجذب الشبيبة نحو الأحزاب التي لها صبغة طائفية هي أعمق جذورًا وأسرع التهابًا في الأوساط الشعبية منها في فيلات الأغنياء أو عند رجال الفكر. الثاني هو أن الانتماء إلى

وقد ساهمت السينما والتلفزيون مساهمة هائلة في دعوة الأجيال الطالعة إلى نبذ القناعات التقليدية وانتزاع حقّها بخيرات المجتمع مهما ساءت الوسيلة. فتفشّت أعمال السلب والسطو والخطف.

٣) انتشار الأحزاب السياسية:

أدرك السياسيون الفائدة العظمى التي يستطيعون أن يجنوها من احتواء الشبان واستخدام ديناميتهم الجيّاشة لترسيخ قواعدهم الشعبية وتحقيق أغراضهم. فبثوا الدعايات ورفعوا الشعارات التي من شأنها أن تستغوي الشبيبة وتثير حماسها وكثيرًا ما أتّخذوا دعاة لأحزابهم في الأوساط الطلابية فريقًا من مديري المدارس وأساتذتها فأقبل الجيل الطالع على الانخراط في المنظمات على اختلاف أهدافها. فالمراهقون والشبان يجدون في انضمامهم إلى الأحزاب قضاء حاجة مادية وحاجة عاطفية: مادية، لأن الحزب بكل ما له من ثقل سياسي واجتماعي يساعد المنتمين مساعدة فعّالة على شقّ طريقهم في الحياة. أما على الصعيد العاطفي فإن شخصية الشاب أو المراهق وهي عادة شخصية حائرة، مائجة، سريعة الانفعال، تجد هذه الشخصية في الانتماء الحزبي عامل انفتاح وانشراح وطمأنينة لم تعد تجده في جوّ العائلة العصرية. فالانتماء الحزبي يتيح للمنتمين تجاوز الإطار العائلي أو الإقليمي الضيق ويردم الحفرة الفاصلة بين الطبقات ويضمّ الفرد إلى جماعة كبيرة أعضاؤها كلهم يؤمنون إيمانه وينهجون نهجه ويعضدونه في الشدائد. الأكثرية من شباب اليوم باتت ترفض أن تعيش «بذاتها ولذاتها» فهي بحاجة إلى تحقيق ذاتها عبر شخص آخر أو عبر جمعية أو منظمة...

انتشرت الأحزاب السياسية على مختلف ألوانها في أوساط الشبيبة الدامورية في الستينات وكان انتشارها أسرع وأشمل بين أبناء الأحياء الشعبية. ومما يدعو إلى الاستغراب أن الأكثرية من الشبان الداموريين الموالين لليمين المحافظ ينتسبون إلى الطبقة الكادحة أو إلى البورجوازية الصغيرة بينما نرى عددًا من أولاد العائلات الثرية يستميلهم اليسار.

– صحيح. كيف تعلل هذا السلوك الذي يبدو مخالفًا لكل قواعد المنطق؟

– أعتقد أن لهذا السلوك سببين رئيسيين: الأول كون العصبية الطائفية التي تجذب الشبيبة نحو الأحزاب التي لها صبغة طائفية هي أعمق جذورًا وأسرع التهابًا في الأوساط الشعبية منها في فيلات الأغنياء أو عند رجال الفكر. الثاني هو أن الانتماء إلى

الرئيسي يعود في ذلك إلى «بخل» البورجوازيين الكبار وتوانيهم عن شراء الأسلحة بكمية وافرة.

- أرجوك أن توضح! أصحيح أن الدامور «سُلِّمَت»؟ أصحيح أن أغنياء الدامور «سلَّموها» بسبب بخلهم؟ هذا اتهام خطير، خطير جدًا...

*

لم يستطع الإجابة عن سؤالي. تلعثم لسانه. انتابه عارض رجفة أشد من المعتاد فتلعثم وهوى إلى الأرض. حملته إلى الفراش وقلت لحفيده أن يسرع ويخبر الأب الرئيس بأنّ حالة الشيخ تستوجب استدعاء الطبيب حالاً. بقيت لوحدي إلى جانبه خَجِلاً من عجزي. كنت أودّ أن تتحقق أمنية هذا الرجل المهجَّر، أمنيته الوحيدة والأخيرة وهي أن يدفن في تربة أجداده. الموت لم يعد له قيمة ولا وزن ولا رهبة... عشرات من الداموريين يموتون منفيين فيُدفنون هنا وهناك وهنالك وتربة أجدادهم محرَّمة عليهم وأرض الدامور محرّمة على أبنائها. وفيما أنا أفكر في هذه المأساة، رأيت المريض يشير بأصبعه نحو إحدى زوايا الغرفة حيث توجد صندوقة خشبية صغيرة. حملتها وأتيته بها فدفعها إلي وأومأ بأن أفتحها. ففتحتها فوجدت فيها قصاصات ورق، قصاصات تتحدث عن معركة الدامور كما روتها بعض الجرائد والمجلات. فهمت من إشاراته أنه يريد أن أحتفظ بها لأني سأجد فيها الجواب عن أسئلتي. جلست على طرف السرير وبدأت أقرأ... فأغمض عينيه وفجأة أخذ يتشنّج ويتلفظ بعبارات غير واضحة فهمت منها:

«فاغنر... أسراب الغربان فوق السنديانة... سفينة الأشباح... السفر باكرًا قبل طلوع الفجر... الشهداء يتكدسون في الأكياس على الرصيف... وأنا... والشهداء وأبنائي... ستمخر بنا إلى المصبّ، ومن هناك سأسبح... سأسبح...»

أخذ يهذي وهو يسبح بالفعل إنما يسبح في العرق البارد. العرق يتصبب من كل جسمه. ربما عرق النزاع. وإذا بحفيده الصغير يعود راكضًا، ملهوفًا وبصحبته راهبة. الأم ا.ن. تعتني بمرضى الدير. إنها أكثر من ممرضة، إنها نصف طبيب وفي بعض الأحيان طبيب ونصف. في جعبتها وصفات ناجعة يجهلها كثير من الأطباء. قصيرة، سمينة، لكنّها رشيقة، كتلة لحم ماوردي تنبعث منها نفحات الرأفة المسيحية بالمعذبين. حضورها، كلماتها المشجعة، رنين صوتها تجعل المريض يشعر بشيء من الطمأنينة وبأنه

الرئيسي يعود في ذلك إلى «بخل» البورجوازيين الكبار وتوانيهم عن شراء الأسلحة بكمية وافرة.

– أرجوك أن توضح! أصحيح أن الدامور «سُلِّمَت»؟ أصحيح أن أغنياء الدامور «سلّموها» بسبب بخلهم؟ هذا اتهام خطير، خطير جدًا...

*

لم يستطع الإجابة عن سؤالي. تلعثم لسانه. انتابه عارض رجفة أشد من المعتاد فتلعثم وهوى إلى الأرض. حملته إلى الفراش وقلت لحفيده أن يسرع ويخبر الأب الرئيس بأنّ حالة الشيخ تستوجب استدعاء الطبيب حالاً. بقيت لوحدي إلى جانبه خَجِلاً من عجزي. كنت أودّ أن تتحقق أمنية هذا الرجل المهجَّر، أمنيته الوحيدة والأخيرة وهي أن يدفن في تربة أجداده. الموت لم يعد له قيمة ولا وزن ولا رهبة... عشرات من الداموريين يموتون منفيين فيُدفنون هنا وهناك وهنالك وتربة أجدادهم محرَّمة عليهم وأرض الدامور محرّمة على أبنائها. وفيما أنا أفكر في هذه المأساة، رأيت المريض يشير بأصبعه نحو إحدى زوايا الغرفة حيث توجد صندوقة خشبية صغيرة. حملتها وأتيته بها فدفعها إلي وأومأ بأن أفتحها. ففتحتها فوجدت فيها قصاصات ورق، قصاصات تتحدث عن معركة الدامور كما روتها بعض الجرائد والمجلات. فهمت من إشاراته أنه يريد أن أحتفظ بها لأني سأجد فيها الجواب عن أسئلتي. جلست على طرف السرير وبدأت أقرأ... فأغمض عينيه وفجأة أخذ يتشنّج ويتلفظ بعبارات غير واضحة فهمت منها:

«فاغنر... أسراب الغربان فوق السنديانة... سفينة الأشباح... السفر باكرًا قبل طلوع الفجر... الشهداء يتكدسون في الأكياس على الرصيف... وأنا... والشهداء وأبنائي... ستمخر بنا إلى المصبّ، ومن هناك سأسبح... سأسبح...»

أخذ يهذي وهو يسبح بالفعل إنما يسبح في العرق البارد. العرق يتصبب من كل جسمه. ربما عرق النزاع. وإذا بحفيده الصغير يعود راكضًا، ملهوفًا وبصحبته راهبة. الأم ا.ن. تعتني بمرضى الدير. إنها أكثر من ممرضة، إنها نصف طبيب وفي بعض الأحيان طبيب ونصف. في جعبتها وصفات ناجعة يجهلها كثير من الأطباء. قصيرة، سمينة، لكنّها رشيقة، كتلة لحم ماوردي تنبعث منها نفحات الرأفة المسيحية بالمعذبين. حضورها، كلماتها المشجعة، رنين صوتها تجعل المريض يشعر بشيء من الطمأنينة وبأنه

معركة الدامور

٧٦/١/١٢ - ١٩٧٦/١/١٩

معركة الدامور

١٩٧٦/١/١٩ - ٧٦/١/١٢

معرَكة الدامور، لماذا؟ ما هي المسببات والغايات؟ ولماذا لم تصمد الدامور كما صمدت بعض الجبهات التي تعرضت مثلها لهجمات ضارية؟

بدأ التراشق بالرصاص والقذائف بين الدامور وحارة الناعمه في أواخر أيار سنة ١٩٧٥. في تلك الفترة كانت المعركة قد احتدمت في بيروت بين المنظمات اليمينية من جهة والتحالف الفلسطيني اليساري من جهة أخرى فأسفرت عن سقوط عدد كبير من الضحايا: نحو ٢٥٠٠ قتيل وعدد كبير من الجرحى. في آخر «ويك-أند» من أيار فوجئت الدامور للمرة الأولى بقصف عشوائي بالصواريخ وأول ضحية سقطت نتيجة هذا القصف كان المرحوم أديب نصر. ضربته القذيفة على قارعة الطريق وهو ذاهب إلى دكانه. والضحية الثانية: المرحوم خليل توفيق القزي. ضربه الصاروخ وهو على البلكون يحتسي القهوة في منزل أحد أصحابه. لم يكن لدى ميليشيات الكتائب والأحرار في الدامور هذا النوع من السلاح فكانت ترد على الصواريخ بمدفع ب ١٠ ودوشكا. ثم حدث قرب جسر الدامور اغتيال مرافق الرئيس شمعون المرحوم نعيم بردقان و لم تُكشف ملابسات هذا الحادث. ثم هدأت الحالة وعادت المواصلات بين الدامور وبيروت وصيدا إلى سابق عهدها. لكن الأعصاب بقيت متوترة وسعاة التفرقة كانوا أوفر حظًا من سعاة التفاهم. عادت المناوشات وعاد التراشق في شهري أيلول وتشرين الأول سنة ١٩٧٥، إنما معظم الأهالي في الدامور وفي الحارة كانوا يرغبون في المصالحة ويريدون السلام لكن زمام الأمور أفلت من أيديهم وبرز في الساحتين زمرة الحزبيين المتطرفين ودعاة المشاغبة وتجار السلاح ولا نستبعد أن يكون قد اندس بينهم عملاء مرتبطون بأجهزة تعمل في الخفاء لتسعير الفتنة.

أ: ما هي أهم الأحداث التي شهدها لبنان أثناء هذه الفترة[٩٧]؟

يمكن تلخيصها كما يلي:

١) على الصعيد السياسي: احتدم الجدل بين اليمين واليسار حول تعديل الدستور

---

٩٧) أي ما بين أيلول ١٩٧٥ واقتحام الدامور في ١٩٧٦/١/١٩.

قد اتفقا عبر بعض الوسطاء على إبقاء منطقة الشوف وعاليه خارج النزاع المسلح... وقد كتبت مجلة «الحوادث» ان الرئيس كرامي، عندما سئل عن سر حملته على الرئيس شمعون أجاب: «كلاّس ما بيغبِّر على طحَّان!»[٩٩].

١٨-١-٧٦: الرئيس كرامي يستقيل ثم يعود عن استقالته.

٢) على الصعيد العسكري:

في ٢-١٢-١٩٧٥ أحرقت على طريق الشام بالقرب من الكحاله شاحنة تحمل نُسَخًا من القرآن الكريم فتكاثرت حوادث الخطف والاغتيال و لم يبقَ من شك أن بعض الأجهزة تعمل في الخفاء لإضرام الفتنة كلما أوشكت نارها أن تنطفئ.

في ٦-١٢ السبت الأسود: على أثر وقوع ٥ كتائبيين في كمين على طريق بيت مري القديمة هاج أهل الضحايا ورفاقهم وطفقوا يحتجزون المارة على الهوية وينكلون بهم وحدث هجوم على المرفأ وعلى الأسواق التجارية وعلى مصلحة الكهرباء وقد صرح المرحوم وليم حاوي القائد العسكري الكتائبي لمجلة الحوادث: «إن مفتعلي هذه الفتنة ينتمون إلى نفس الفئات اليسارية المخربة التي كانت هي الأساس بافتعال كل الفتن السابقة من حين اغتيال المرحوم معروف سعد لغاية هذه الفتنة الأخيرة ومن الواضح أنها تعمَّدَت إفساد زيارة رئيس الكتائب إلى دمشق...»

في ٨-١٢-٧٥ اشتعلت حرب الفنادق والأبراج في المنطقة الممتدة من الستاركو إلى الهوليداي إن والتي كانت في أيدي الكتائب والمثلث القائم بين برج المر وفندق فينيسيا والسان جورج والتي كانت تسيطر عليها القوات المشتركة (مرابطون واشتراكيون). وكانت المحاولات لاقتحام الهوليداي إن قد فشلت وتحوّلت الحرب هناك إلى حرب مواقع.

في اليوم ذاته، أي في ٨-١٢ بدأت معركة حارة الغوارنة وانتهت في ١١-١٢ ظهرًا باقتحام كتائبي ناجح.

في ٢٧-١٢ سِبنَيه: طوّقتها قوات الأحرار من الحدث وهجَّرت سكانها ونسفت بيوتهم.

---

٩٩) مجلة الحوادث في ٧٦/١/١٦ (دبابيس).

قد اتفقا عبر بعض الوسطاء على إبقاء منطقة الشوف وعاليه خارج النزاع المسلح... وقد كتبت مجلة «الحوادث» ان الرئيس كرامي، عندما سئل عن سر حملته على الرئيس شمعون أجاب: «كلاّس ما بيغبّر على طحّان!»[٩٩].

١٨-١-٧٦: الرئيس كرامي يستقيل ثم يعود عن استقالته.

٢) على الصعيد العسكري:

في ٢-١٢-١٩٧٥ أحرقت على طريق الشام بالقرب من الكحاله شاحنة تحمل نُسَخًا من القرآن الكريم فتكاثرت حوادث الخطف والاغتيال و لم يبقَ من شك أن بعض الأجهزة تعمل في الخفاء لإضرام الفتنة كلما أوشكت نارها أن تنطفئ.

في ٦-١٢ السبت الأسود: على أثر وقوع ٥ كتائبيين في كمين على طريق بيت مري القديمة هاج أهل الضحايا ورفاقهم وطفقوا يحتجزون المارة على الهوية وينكلون بهم وحدث هجوم على المرفأ وعلى الأسواق التجارية وعلى مصلحة الكهرباء وقد صرح المرحوم وليم حاوي القائد العسكري الكتائبي لمجلة الحوادث: «إن مفتعلي هذه الفتنة ينتمون إلى نفس الفئات اليسارية المخربة التي كانت هي الأساس بافتعال كل الفتن السابقة من حين اغتيال المرحوم معروف سعد لغاية هذه الفتنة الأخيرة ومن الواضح أنها تعمَّدَت إفساد زيارة رئيس الكتائب إلى دمشق...»

في ٨-١٢-٧٥ اشتعلت حرب الفنادق والأبراج في المنطقة الممتدة من الستاركو إلى الهوليداي إن والتي كانت في أيدي الكتائب والمثلث القائم بين برج المر وفندق فينيسيا والسان جورج والتي كانت تسيطر عليها القوات المشتركة (مرابطون واشتراكيون). وكانت المحاولات لاقتحام الهوليداي إن قد فشلت وتحوّلت الحرب هناك إلى حرب مواقع.

في اليوم ذاته، أي في ٨-١٢ بدأت معركة حارة الغوارنة وانتهت في ١١-١٢ ظهرًا باقتحام كتائبي ناجح.

في ٢٧-١٢ سِبنَيه: طوّقتها قوات الأحرار من الحدث وهجَّرت سكانها ونسفت بيوتهم.

---

٩٩) مجلة الحوادث في ٧٦/١/١٦ (دبابيس).

تشجعهم على هذا العمل لأنّ قوى الأمن أصبحت مشلولة، ولأن قطع الطريق بين الجنوب وبيروت الغربية من شأنه إضعاف الجبهة الفلسطينية اليسارية. معظم أهالي الدامور كانوا ينزعجون من قطع المواصلات أكثر من غيرهم، فأصحاب البساتين لا يعود بمقدورهم تصريف منتجاتهم والتجار يقفلون متاجرهم والمنتزهات ينقطع عنها روادها ولكن ما العمل؟ في غياب الدولة أليس من واجب التكتلات الإقليمية أن تنظم الدفاع عن نفسها بجميع ما يتوفر لديها من الوسائل؟ وبالفعل كانت هذه الوسيلة أي قطع الطريق هي الوحيدة التي تؤدي أحيانًا إلى الهدف فيطلق سراح المخطوفين ويعاد فتح الطريق. من جهة أخرى لم يكن بإمكان التحالف اليساري الفلسطيني إبقاء طريق صيدا بيروت تحت رحمة القوى اليمينية. هذه الطريق هي حبل الوريد بالنسبة لحرب البيروتَين. انقطاعها يعزل بيروت الغربية ويمنع عنها الإمدادات الغذائية والعسكرية فكان لا بد لليسار من انتزاع السيطرة على هذا الشريان قبل أن يتحول من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم. في مقابلة أجرتها مجلة الحوادث مع المقدم مصطفى سعد الدين قائد منظمة الصاعقة العسكري في الجنوب وهو في المستشفى على أثر إصابته أثناء عملية اقتحام قصر الرئيس شمعون، سأله السيد سمير بساط: «لماذا قمتم باقتحام القصر؟» فأجاب: «لأن القصر كان حجر عثرة في الطريق الدولية من بيروت إلى الجنوب وكان لا بدَّ لمرور المواطنين بأمان من بيروت إلى الجنوب وبالعكس، من تحطيم قصر السعديات»[١٠١] إذن اقتحام الدامور والسعديات كان في نظر اليسار ضرورة عسكرية لتأمين الطريق.

٢) الردّ على عملية الضبيه والكرنتينا والمسلخ وغيرها...

تجاه السخط الإسلامي المتزايد كان لا بد لليسار من القيام بعملية ثأر مهمة لإقناع رجل الشارع بأنه بمقدور التحالف الفلسطيني اليساري أن يرد التحية، فجاء الرد بتطويق الدامور والجيه في الشوف وزحله في البقاع. ما أوحى إلى الرئيس الدكتور عبدالله اليافي قوله: «إن الشعب اللبناني يعيش حكاية القرد والقطتين... فلكي تتمّ المعادلة بين الطرفين أخذ القرد يأكل من جبنة بيت ملاّت وتل عباس ثم يتحوّل إلى القاع وداريا، ثم ينتقل إلى حي الغوارنة والكرنتينا ثم يتحول إلى الدامور...» ضربة على الشمال، ضربة على

١٠١) مجلة الحوادث تاريخ ٧٦/١/٢٠، صفحة ٣٩.

تشجعهم على هذا العمل لأنّ قوى الأمن أصبحت مشلولة، ولأن قطع الطريق بين الجنوب وبيروت الغربية من شأنه إضعاف الجبهة الفلسطينية اليسارية. معظم أهالي الدامور كانوا ينزعجون من قطع المواصلات أكثر من غيرهم، فأصحاب البساتين لا يعود بمقدورهم تصريف منتجاتهم والتجار يقفلون متاجرهم والمنتزهات ينقطع عنها روادها. ولكن ما العمل؟ في غياب الدولة أليس من واجب التكتلات الإقليمية أن تنظم الدفاع عن نفسها بجميع ما يتوفر لديها من الوسائل؟ وبالفعل كانت هذه الوسيلة أي قطع الطريق هي الوحيدة التي تؤدي أحيانًا إلى الهدف فيطلق سراح المخطوفين ويعاد فتح الطريق. من جهة أخرى لم يكن بإمكان التحالف اليساري الفلسطيني إبقاء طريق صيدا بيروت تحت رحمة القوى اليمينية. هذه الطريق هي حبل الوريد بالنسبة لحرب البيروتَين. انقطاعها يعزل بيروت الغربية ويمنع عنها الإمدادات الغذائية والعسكرية فكان لا بد لليسار من انتزاع السيطرة على هذا الشريان قبل أن يتحول من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم. في مقابلة أجرتها مجلة الحوادث مع المقدم مصطفى سعد الدين قائد منظمة الصاعقة العسكري في الجنوب وهو في المستشفى على أثر إصابته أثناء عملية اقتحام قصر الرئيس شمعون، سأله السيد سمير بساط: «لماذا قمتم باقتحام القصر؟» فأجاب: «لأن القصر كان حجر عثرة في الطريق الدولية من بيروت إلى الجنوب وكان لا بدَّ لمرور المواطنين بأمان من بيروت إلى الجنوب وبالعكس، من تحطيم قصر السعديات»[١٠١] إذن اقتحام الدامور والسعديات كان في نظر اليسار ضرورة عسكرية لتأمين الطريق.

٢) الردّ على عملية الضبيه والكرنتينا والمسلخ وغيرها...

تجاه السخط الإسلامي المتزايد كان لا بد لليسار من القيام بعملية ثأر مهمة لإقناع رجل الشارع بأنه بمقدور التحالف الفلسطيني اليساري أن يرد التحية، فجاء الرد بتطويق الدامور والجيه في الشوف وزحله في البقاع. ما أوحى إلى الرئيس الدكتور عبدالله اليافي قوله: «إن الشعب اللبناني يعيش حكاية القرد والقطتين... فلكي تتمّ المعادلة بين الطرفين أخذ القرد يأكل من جبنة بيت ملاّت وتل عباس ثم يتحوّل إلى القاع وداريا، ثم ينتقل إلى حي الغوارنة والكرنتينا ثم يتحول إلى الدامور...» ضربة على الشمال، ضربة على

---

١٠١) مجلة الحوادث تاريخ ٧٦/١/٢٠، صفحة ٣٩.

والتي يترجمها صاحب الافتتاحية بكلمة «تجاوزات» لم ترتكب فقط بدافع الثأر إنما تنفيذاً لمخطط هدفه نشر هيبة الحِلف الفلسطيني اليساري بالترويع وجعل سائر القرى المسيحية المعزولة في الشوف وفي الجنوب ترتدع عن المقاومة وتسلِّم سلاحها راضخة لمشيئة الحلف. وهذا ما حصل بالفعل بالنسبة لبعض القرى[١٠٢].

جيم: كيف تطورت المعركة ولماذا انهار الدفاع؟

بدأ قصف الدامور بالهواوين ابتداء من ليل ١٢-١-١٩٧٦ وأذاع بيان صادر عن القيادة المركزية للنمور الأحرار أن مصادر القصف تتوزّع كما يلي: «مركز هاون من بعورتا، مركز هاون من قبر حبنجر، مركز هاون من ملتقى النهرين، مركز هاون من جهة حارة الناعمه»[١٠٣].

من الواضح أن وضع المدافعين عن الدامور في هذه المعركة يختلف تمامًا عما كان عليه على أيام الجنرال دنز. فأثناء حرب ١٩٤١ كانت التلال المجاورة كلها تحت سيطرة جيش الدفاع بينما أصبحت كلها الآن بين أيدي المهاجمين وقد نصبوا عليها قواعد صاروخية ومدافع هاون من عيار ٨٢ و١٢٠. جبهة الجيه-الدامور محاصرة من كل الجهات إلا من البحر وبإمكان المتسللين أن يتغلغلوا ليلاً بين بساتين الموز والليمون وأن يهاجموا أيضًا من جهة البحر. الدفاع خطه طويل ومترجرج والمدافعون عددهم لا يتجاوز المائة والخمسين بينما حشود المهاجمين تقدّر بأكثر من ألف.

مصادر قوى الأمن قدّرت عدد المقاتلين القادمين فقط من جهة دميت وكفرحيم بألف وهم يحملون أسلحة ثقيلة وكتبت جريدة الأنوار في عددها الصادر بتاريخ ١٤-١-١٩٧٦ استنادًا إلى مصادر قوى الأمن «ان الدامور شاهدت منذ صباح أمس وحتى المساء عمليات عسكرية عنيفة فقد هوجمت من التلال المحيطة بها بمدافع الهاون والرشاشات الثقيلة وأضافت المصادر أن العمليات بدأت بعد إطلاق عدة رشقات من رشاش ثقيل من مفرق المغيري – ملتقى النهرين».

في ١٣-١-١٩٧٦ هوجمت المشرف واستشهد فيها سيمون مهنا من النمور الأحرار كما خُطِف وقُتل كل من جرجس معوض وجرجس القزي، أما المهاجمون

١٠٢) مثل الدبيه والجيّه وغيرهما.
١٠٣) بكل تحفظ.

والتي يترجمها صاحب الافتتاحية بكلمة «تجاوزات» لم ترتكب فقط بدافع الثأر إنما تنفيذًا لمخطط هدفه نشر هيبة الحِلف الفلسطيني اليساري بالترويع وجعل سائر القرى المسيحية المعزولة في الشوف وفي الجنوب ترتدع عن المقاومة وتسلّم سلاحها راضخة لمشيئة الحلف. وهذا ما حصل بالفعل بالنسبة لبعض القرى[١٠٢].

جيم: كيف تطورت المعركة ولماذا انهار الدفاع؟

بدأ قصف الدامور بالهواوين ابتداء من ليل ١٢-١-١٩٧٦ وأذاع بيان صادر عن القيادة المركزية للنمور الأحرار أن مصادر القصف تتوزّع كما يلي: «مركز هاون من بعورتا، مركز هاون من قبر حبنجر، مركز هاون من ملتقى النهرين، مركز هاون من جهة حارة الناعمه»[١٠٣].

من الواضح أن وضع المدافعين عن الدامور في هذه المعركة يختلف تمامًا عما كان عليه على أيام الجنرال دنز. فأثناء حرب ١٩٤١ كانت التلال المجاورة كلها تحت سيطرة جيش الدفاع بينما أصبحت كلها الآن بين أيدي المهاجمين وقد نصبوا عليها قواعد صاروخية ومدافع هاون من عيار ٨٢ و١٢٠. جبهة الجيه-الدامور محاصرة من كل الجهات إلا من البحر وبإمكان المتسللين أن يتغلغلوا ليلاً بين بساتين الموز والليمون وأن يهاجموا أيضًا من جهة البحر. الدفاع خطه طويل ومترجرج والمدافعون عددهم لا يتجاوز المائة والخمسين بينما حشود المهاجمين تقدّر بأكثر من ألف.

مصادر قوى الأمن قدّرت عدد المقاتلين القادمين فقط من جهة دميت وكفرحيم بألف وهم يحملون أسلحة ثقيلة وكتبت جريدة الأنوار في عددها الصادر بتاريخ ١٤-١-١٩٧٦ استنادًا إلى مصادر قوى الأمن «ان الدامور شاهدت منذ صباح أمس وحتى المساء عمليات عسكرية عنيفة فقد هوجمت من التلال المحيطة بها بمدافع الهاون والرشاشات الثقيلة وأضافت المصادر أن العمليات بدأت بعد إطلاق عدة رشقات من رشاش ثقيل من مفرق المغيري – ملتقى النهرين».

في ١٣-١-١٩٧٦ هوجمت المشرف واستشهد فيها سيمون مهنا من النمور الأحرار كما خُطِف وقُتل كل من جرجس معوض وجرجس القزي، أما المهاجمون

١٠٢) مثل الدبيه والجيّه وغيرهما.
١٠٣) بكل تحفظ.

يسدوا الثغرات الحاصلة في صفوفهم نظرًا لقلة عدد المدربين. ازاء هذا الوضع المتدهور وبعد المراجعات الملحة والتوسلات الحارة تحركت أوساط بعبدا وأرسلت حفنة من مغاوير الجيش عددهم حوالى الستين بقيادة ضابط من آل الضناوي لنجدة الدامور. لكن الدور الذي لعبه هؤلاء المغاوير كان مدعاة للشكوك، فقد اتهمهم الكثيرون بأنهم هم «الذين فتحوا الثغرة الخطيرة في الجهاز الدفاعي»[١٠٦] وحثوا الداموريين على الهريبة.

أما المصادر الرسمية فتقول انهم حاولوا إقامة خطَّي دفاع لجهة الشرق (مراح الدعسه – طريق بعورته) لكن الخط الأول ما لبث أن خُرق فلاذ المغاوير بالهرب... والواقع أنه لم يسقط لهم ولا شهيد أثناء الهجوم الحاسم على البلدة و لم يُصَب أحد منهم بأذى يذكر.

لماذا لم تصمد الدامور كما صمدت الكحالة أو جزين مثلاً؟

صحيفة «صدى الدامور» تولت الجواب عن هذا السؤال كما يلي[١٠٧]:

هناك عدة عوامل عززت صمود تلك المواقع أهمها:

دعم الجيش السوري لبعضها (جزين، القبيات).

هبوب القوات اللبنانية إلى نجدتها بأعداد كثيفة (عكار).

تأمين حماية ظهرها ووصول الإمدادات إليها (دير الأحمر).

وجود الجيش اللبناني بالقرب منها (زحله – الكحاله).

... بينما الدامور تُركت تنازع لوحدها...

يبقى السؤال الكبير مطروحًا: لماذا تركت الدامور؟ لماذا «تركت تنازع لوحدها» وكلهم يعرفون ما لها من أهمية استراتيجية وسياسية في الشوف؟ هل التخلي عن إمداد الدامور بما يكفي لتعزيز صمودها كان أيضًا نتيجة مؤامرة؟ لماذا لم تُبحَث المقايضة بين

طوني أيوب عيد، نصر طانوس نصر، جوزف الياس أبو شقرا، غازي وديع الغريب، ميشال جرجي الغريب، طانوس ديب شلهوب، الياس يوسف البستاني، بسام حبيب أبو حيدر، مارون توفيق الأسمر، ابراهيم الياس أبو مرعي، طوني جريس القزي، ميلاد سليم الأسمر، جورج نخله أسعد. أما عدد الضحايا من المدنيين فيناهز المائة والخمسين.

١٠٦) صدى الشوف، ١٩٧٦/٩/١٦.

١٠٧) صدى الدامور، ١٩٧٦/٩/١٦.

يسدوا الثغرات الحاصلة في صفوفهم نظرًا لقلة عدد المدربين. ازاء هذا الوضع المتدهور وبعد المراجعات الملحة والتوسلات الحارة تحركت أوساط بعبدا وأرسلت حفنة من مغاوير الجيش عددهم حوالى الستين بقيادة ضابط من آل الضناوي لنجدة الدامور. لكن الدور الذي لعبه هؤلاء المغاوير كان مدعاة للشكوك، فقد اتهمهم الكثيرون بأنهم هم «الذين فتحوا الثغرة الخطيرة في الجهاز الدفاعي»[١٠٦] وحثوا الداموريين على الهريبة.

أما المصادر الرسمية فتقول انهم حاولوا إقامة خطَّي دفاع لجهة الشرق (مراح الدعسه – طريق بعورته) لكن الخط الأول ما لبث أن خُرق فلاذ المغاوير بالهرب... والواقع أنه لم يسقط لهم ولا شهيد أثناء الهجوم الحاسم على البلدة و لم يُصَب أحد منهم بأذى يذكر.

لماذا لم تصمد الدامور كما صمدت الكحالة أو جزين مثلاً؟

صحيفة «صدى الدامور» تولت الجواب عن هذا السؤال كما يلي[١٠٧]:

هناك عدة عوامل عززت صمود تلك المواقع أهمها:

دعم الجيش السوري لبعضها (جزين، القبيات).

هبوب القوات اللبنانية إلى نجدتها بأعداد كثيفة (عكار).

تأمين حماية ظهرها ووصول الإمدادات إليها (دير الأحمر).

وجود الجيش اللبناني بالقرب منها (زحله – الكحاله).

... بينما الدامور تُركت تنازع لوحدها...

يبقى السؤال الكبير مطروحًا: لماذا تركت الدامور؟ لماذا «تركت تنازع لوحدها» وكلهم يعرفون ما لها من أهمية استراتيجية وسياسية في الشوف؟ هل التخلي عن إمداد الدامور بما يكفي لتعزيز صمودها كان أيضًا نتيجة مؤامرة؟ لماذا لم تُبحَث المقايضة بين

طوني أيوب عيد، نصر طانوس نصر، جوزف الياس أبو شقرا، غازي وديع الغريب، ميشال جرجي الغريب، طانوس ديب شلهوب، الياس يوسف البستاني، بسام حبيب أبو حيدر، مارون توفيق الأسمر، ابراهيم الياس أبو مرعي، طوني جريس القزي، ميلاد سليم الأسمر، جورج نخله أسعد. أما عدد الضحايا من المدنيين فيناهز المابة والخمسين.

١٠٦) صدى الشوف، ١٩٧٦/٩/١٦.

١٠٧) صدى الدامور، ١٩٧٦/٩/١٦.

اقتحام الدامور
(١٩٧٦/١/١٩)
يرويه شهود عيان

«ان كنت رقيق القلب، فإياك أن تشتغل بالسياسة».

(ماكياڤيل)

اقتحام الدامور
(١٩٧٦/١/١٩)
يرويه شهود عيان

«ان كنت رقيق القلب، فإياك أن تشتغل بالسياسة».

(ماكياڤيل)

(لقد آثرنا تدوين هذه الشهادات كما أدلى بها أصحابها باللغة الدارجة لنضع أمام القارئ صورة صحيحة حيَّة عن الأحداث التي عاشها كل شاهد).

سليم ك.:

بيتي في حارة الروس جنب بيت الدكتور ب. أنا أرمل وعندي ولدان. الكبير عمره ١٨ سنة، بعدني ما بعرف إن كان حيّ أو ميت. إبني الثاني عمره ١٤. انصاب إصابة بسيطة. قِدِر يركض ويهرب. أنا تقوست بكتفي وصار الدم يفوّر مني. التقحت على الأرض وعملت حالي ميت. وصلوا لي وصاروا يقلبوني ويلكشوني وأنا مستموت. قال الفدائي لرفيقه: ارتحنا منه، ما بيحرز رصاصه ثانيه، شِيلو الساعة من إيدو. صرت خايف هو وعمبيشيل الساعة يحس على نبضي عمبيضرب. اللّه ستر. أخذ الساعة ومد إيدو على عبي وسحب جزدان فيه ثلاثماية ليرة. بقيت مستموت حتى فلّوا. لما صارت الدنيا ليل، زحفت إلى بيت الدكتور ب. والدم عمبينزف من كتفي. سمعت جارتنا عمبتعن: دخلك، حملني من هون قبل ما موت! قتلوا لي زوجي واولادي الأربعة... قلت لها: أنا مش قادر أحمل نفسي كيف بدي احملك. لما وصلت إلى بيت الدكتور ربطوا لي جرحي ورموني في مكنه رايحه للسعديات حملوني بالهليكوبتر وأخذوني على اليرزه. دخلوني المستشفى وأعطوني دم حالاً. حارة الروس فظّعوا فيها أكثر من كل الدامور. ليش؟ ما بعرف... ما فيها كتايب إلا خمسة، ستة. حملوا السلاح ليدافعوا عن أرضهم وعرضهم... لما صار الاقتحام هربوا وخلصوا. البقية شو ذنبهم؟

ليزا م.:

أنا عجوز. معي نشاف بالشرايين وألف ضربه سخنه. إبني جورج قال لي: يا ماما، أحسن ننزل نحتمي في كرخانة العين. المحل بعيد عن الضرب والحيطان سميكه، القنابل ما بتخرقها. دركبت حالي ورحت معه. إبني البكر طانيوس ما بعرف مصيره. قالوا لي

أخذ مني الفيلم الذي صورت فيه الأطفال والنساء المشقفه بالفرّاعه. وقال لرفيقي: تعال معي لسمعك شو راح قول لبعبدا... أخذ التلفون وصار يحكي بلهجة الغضب ويصرخ: السعديات والدامور عمتحترق، يا...! إبعث جيش! إبعث طيارات!

قلنا له: لن يلبوك في بعبدا. اتصل بياسر عرفات.

قال: غير معقول!

قلنا: سكان الدامور في حالة انهيار. لم يبقَ من المقاتلين إلا سبعه، ثمانيه... شو بدهم يدافعوا ليدافعوا؟

قال: إذهبوا إلى الموجودين في مار مخايل وقولوا لهم أن يأتوا إلى هنا...

لم نلحق نقطع جسر الدامور حتى كانوا الفدائيه سبقونا. فهربنا إلى الدبيّه.

سعيد وأسعد ع.:

بيتنا في الجهة الشرقية. سمعنا صوت المغاوير بيصرخوا: «هْربوا! هْربوا!»

إلى أين نهرب؟ ما عندنا سيارة وبيتنا بعيد. اختبأنا في قن الدجاج وبقينا يومين لا نأكل ولا نشرب ولا نتحرك. لما الفدائيه اكتشفوا مخبأنا، أسعفونا وبعتونا إلى كفرمتى. لكن بيتنا احترق. وضعنا فيه كل جنى حياتنا. نحن والفلسطينيه كنا مثل الدهنه على الفطيره. كانوا يجوا من المخيمات يشتغلوا في الدامور. وفي منهم سكنوا الدامور وعمَّروا وفتحوا متاجر وصار لهم ملك. لايش عملوا فينا هيك؟ بيقولوا: الدوامري قطعوا علينا الطريق. نحنا بزماننا ما قطعنا طريق ولا تعدينا على أحد. اللي كانوا ينزلوا ويقطعوا الطريق معروفون من هم. بيحرقوا بلد عن بكرة أبيها وبيقتلوا الأبرياء ليقتصوا من كم واحد. بيهجّروا بلد طويله عريضه. فشة خلق؟ هالشي ما بيقطع العقل. حريق الدامور وتهجير سكانها في وراه سر.

مرتا س.:

اللي ما شاف شاطئ السعديات يوم الهشله ما شاف شي في حياته. العالم تتراكض بالمئات وترتمي على السنابك. الرجال والنسوان بثياب النوم حاملين أطفالهم ملفوفين بحرامات. ويا ليت خلوا لنا الحرامات. صرخوا: السنابك ما بتحمل حرامات. ارموهم

أخذ مني الفيلم الذي صورت فيه الأطفال والنساء المشقفه بالفرّاعه. وقال لرفيقي: تعال معي لسمعك شو راح قول لبعبدا... أخذ التلفون وصار يحكي بلهجة الغضب ويصرخ: السعديات والدامور عمتحترق، يا...! إبعث جيش! إبعث طيارات!

قلنا له: لن يلبوك في بعبدا. اتصل بياسر عرفات.

قال: غير معقول!

قلنا: سكان الدامور في حالة انهيار. لم يبقَ من المقاتلين إلا سبعه، ثمانيه... شو بدهم يدافعوا ليدافعوا؟

قال: إذهبوا إلى الموجودين في مار مخايل وقولوا لهم أن يأتوا إلى هنا...

لم نلحق نقطع جسر الدامور حتى كانوا الفدائيه سبقونا. فهربنا إلى الدبيّه.

سعيد وأسعد ع.:

بيتنا في الجهة الشرقية. سمعنا صوت المغاوير بيصرخوا: «هْربوا! هْربوا!»

إلى أين نهرب؟ ما عندنا سيارة وبيتنا بعيد. اختبأنا في قن الدجاج وبقينا يومين لا نأكل ولا نشرب ولا نتحرك. لما الفدائيه اكتشفوا مخبأنا، أسعفونا وبعتونا إلى كفرمتى. لكن بيتنا احترق. وضعنا فيه كل جنى حياتنا. نحن والفلسطينيه كنا مثل الدهنه على الفطيره. كانوا يجوا من المخيمات يشتغلوا في الدامور. وفي منهم سكنوا الدامور وعمَّروا وفتحوا متاجر وصار لهم ملك. لايش عملوا فينا هيك؟ بيقولوا: الدوامري قطعوا علينا الطريق. نحنا بزماننا ما قطعنا طريق ولا تعدينا على أحد. اللي كانوا ينزلوا ويقطعوا الطريق معروفون من هم. بيحرقوا بلد عن بكرة أبيها وبيقتلوا الأبرياء ليقتصوا من كم واحد. بيهجّروا بلد طويله عريضه. فشة خلق؟ هالشي ما بيقطع العقل. حريق الدامور وتهجير سكانها في وراه سر.

مرتا س.:

اللي ما شاف شاطئ السعديات يوم الهشله ما شاف شي في حياته. العالم تتراكض بالمئات وترتمي على السنابك. الرجال والنسوان بثياب النوم حاملين أطفالهم ملفوفين بحرامات. ويا ليت خلوا لنا الحرامات. صرخوا: السنابك ما بتحمل حرامات. ارموهم

سألت جارنا وديع: أي طريق سالكه؟ قال: لا تخافي، خليك في بيتك، هجموا علينا مرتين ورديناهم، مهما عملوا، مش راح نخليهم يحتلوا الدامور. ما مرت بضع ساعات على هذا الحديث إلا شفت الفدائيه عمبيفزفزوا حوالى بيتنا. ركضت واختبأت في القبو، في خزّان ماء فاضي. احترق البيت وهبطت تكنة القرميد وأنا في المخبأ. لما خفّت الحركه، طلعت ومشيت صوب الكنيسة. مسكني فدائي هيئتو لطيف. قال لي: «ما تخافي نحنا مش كلنا مثل بعضنا. تعالي معي. أنا أحميك». وفيما هو يقول لي ذلك، اقترب رفيقه والنار عمتتطاير من عينيه وصار يهددني بالقتل. فمنعه وأخذني إلى دار ا.هـ. حيث كانوا يجمعون الناس الباقيين في البلد. دخل اثنان استشبهنا بهم. صاروا يخلعوا الأبواب ويأخذوا من الخزانات ويحملوها بأكياس. ثم دخلت ابنة... وصارت تنادي ست الدار الغائبة وتهزأ بها: «يا ست الدار، أين أنت، يا ست ن. أين الخدم والحشم؟ أين البيك؟ بعد ما خلص من الحمَّام!» تقول ذلك وتضحك. كنت راح ألطشها كلمتين، لكن تمالكت نفسي وقلت في قلبي: «هلاّ هلاّ، يا دني!» بعد قليل من الوقت سألني أحد المسؤولين إلى أين أريد أن أذهب. قلت: عند ابنة أخي وهي معلّمة مدرسة في الجنوب. فأرسلوني إلى حيث طلبت.

فهد ط.:

كنت في فرشتي. أنا مريض بالقلب. دخلوا عليّ وسألوني عن اسمي ثم أشاروا عليّ بالتوجه إلى كنيسة السيدة لأكون بأمان تحت حراستهم. ترددت. قال أحدهم: لا تخف! نحن لا نقتل على الهوية ومرادنا أن نحافظ على حياتكم لأننا لا نقدر أن نضبط كل رفاقنا. تعال معنا إلى الكنيسة فتكون بأمان. رحت معهم أنا وامرأتي. في الكنيسة قدموا لنا كولا وسفن اب وسجاير لكني لم أقدر أن أشرب. كنت في حالة اضطراب شديد. ومما أثّر في نفسي كثيرًا مشهد الدامور عمتحترق. في ليلة واحدة مئات المنازل تهب فيها النار دفعة واحدة مثل «قبّيلة عيد الصليب» شو ذنب هالبيوت؟ كثير من أصحابها تقدميون... الدامور بتعطي فوق الألف صوت للائحة جنبلاط في الانتخابات...[١٠٨]. أنا إبني داخل في حزب تقدمي وقد أمضى شبابه يناضل في سبيل عقيدته. حرق الدامور

١٠٨) في انتخابات ١٩٦٨ أعطت الدامور للائحة جنبلاط – عزيز عون نحو ١٢٠٠ صوت، وأعطت للائحة شمعون – الغفري نحو ٢٠٠٠ صوت.

سألت جارنا وديع: أي طريق سالكه؟ قال: لا تخافي، خليك في بيتك، هجموا علينا مرتين ورديناهم، مهما عملوا، مش راح نخليهم يحتلوا الدامور. ما مرت بضع ساعات على هذا الحديث إلا شفت الفدائيه عمبيفزفزوا حوالى بيتنا. ركضت واختبأت في القبو، في خزّان ماء فاضي. احترق البيت وهبطت تكنة القرميد وأنا في المخبأ. لما خفّت الحركه، طلعت ومشيت صوب الكنيسة. مسكني فدائي هيئتو لطيف. قال لي: «ما تخافي نحنا مش كلنا مثل بعضنا. تعالي معي. أنا أحميك». وفيما هو يقول لي ذلك، اقترب رفيقه والنار عمتتطاير من عينيه وصار يهددني بالقتل. فمنعه وأخذني إلى دار ا.هـ. حيث كانوا يجمعون الناس الباقيين في البلد. دخل اثنان استشبهنا بهم. صاروا يخلعوا الأبواب ويأخذوا من الخزانات ويحملوها بأكياس. ثم دخلت ابنة... وصارت تنادي ست الدار الغائبة وتهزأ بها: «يا ست الدار، أين أنت، يا ست ن. أين الخدم والحشم؟ أين البيك؟ بعد ما خلص من الحمَّام!» تقول ذلك وتضحك. كنت راح ألطشها كلمتين، لكن تمالكت نفسي وقلت في قلبي: «هلاً هلاّ، يا دني!» بعد قليل من الوقت سألني أحد المسؤولين إلى أين أريد أن أذهب. قلت: عند ابنة أخي وهي معلّمة مدرسة في الجنوب. فأرسلوني إلى حيث طلبت.

فهد ط.:

كنت في فرشتي. أنا مريض بالقلب. دخلوا عليّ وسألوني عن اسمي ثم أشاروا عليّ بالتوجه إلى كنيسة السيدة لأكون بأمان تحت حراستهم. ترددت. قال أحدهم: لا تخف! نحن لا نقتل على الهوية ومرادنا أن نحافظ على حياتكم لأننا لا نقدر أن نضبط كل رفاقنا. تعال معنا إلى الكنيسة فتكون بأمان. رحت معهم أنا وامرأتي. في الكنيسة قدموا لنا كولا وسفن اب وسجاير لكني لم أقدر أن أشرب. كنت في حالة اضطراب شديد. ومما أثّر في نفسي كثيرًا مشهد الدامور عمتحترق. في ليلة واحدة مئات المنازل تهب فيها النار دفعة واحدة مثل «قبّيلة عيد الصليب» شو ذنب هالبيوت؟ كثير من أصحابها تقدميون... الدامور بتعطي فوق الألف صوت للائحة جنبلاط في الانتخابات...[١٠٨]. أنا إبني داخل في حزب تقدمي وقد أمضى شبابه يناضل في سبيل عقيدته. حرق الدامور

---

١٠٨) في انتخابات ١٩٦٨ أعطت الدامور للائحة جنبلاط – عزيز عون نحو ١٢٠٠ صوت، وأعطت للائحة شمعون – الغفري نحو ٢٠٠٠ صوت.

سميح ف.:

لما وصلوا، كنت في بيت عمي. كل اللي كانوا معنا هربوا. بقيت لوحدي أنا وعمتي المريضة. دخل فدائي وصوّب الرشاش لصدري وسألني: «كم فدائي قتلت؟» قلت: «يا عمي، أنا ما بعرف حارب. مش صنعتي الضرب والقتل. شو لي دخل مع الفدائيه؟» قال: «افتح الخزنة! حالاً افتح الخزنة وإلا بطخّك!» في ببيت عمي صندوق حديد ما بعرف شو فيه. المفاتيح مع عمي، وعمي ترك البيت قبل بيوم... صارت عمتي تبكي وتترجّا الفدائي وهو مصوب رشاشه عليّ ويتهددني. كان في رأسي شوية عقل وطار. صرت ارجف كلني سوى وصرخت بوجهه: «تفضل! ما في معي إلا هالمفاتيح... (ورميت له مفاتيح خزانتي). بدك تقتلني، اقتلني، مش خايف منك!» لما شافني بهالحالة وعينيّ نافرين من وجهي وعمبرجف كلني سوى برقروقة البيجاما، اجاه الضحك وقال: «يا عيني، يا عيني! ملاّ مساتر!» بعدها أخذونا أنا وعمتي لكنيسة السيدة. ترجيتهم لأرجع جيب حرامي وثيابي. الدنيا برد وشتا. ما قبلوا... في الكنيسة صاروا يروقوها معنا ويقدموا لنا كولا. لا هيك ولا هيك! لا بدنا يحرقوا لنا بيوتنا ولا بدنا يسقونا كولا. ثاني يوم أخذونا إلى صبرا. كنت خايف يعذبوني ويذبحوني. لا. جمعونا في مدرسة وحطونا تحت حراسة وصاروا يقدموا لنا مأكولات. فتحوا لي علبة حمص بطحيني بدون حامض وزيت. نرفزت وقلت للحراس: «يا عمي أنا مش معتاد آكل حمص بدون حامض وزيت!» ضحكوا وراحوا فتشوا لي على حامض وزيت.

جورج عساف (١٤ سنة): (نقلاً عن جريدة السفير – عدد ٢٦-١-٧٦):

كنت مع أبي وأمي وإخوتي الأربعة نائمين عندما سمعنا طرقًا على الباب. خاف أبي فلم يفتح وإذا بالرصاص ينهمر. قتل أبي وأصيبت أمي. جيراننا كانوا عندنا. مات اثنان منهم الأب والأم. في الصباح أخذنا خالي إلى قصر شمعون. نمنا هناك ثم جئنا إلى الدبيه.

رشيد القزي: (نقلاً عن جريدة السفير أيضًا:)

حاولنا دائمًا تحييد الدامور ووضع حدّ لاستفزازات البعض... فلم نفلح. فكانت النتيجة ما وصلنا إليه الآن.

سميح ف.:

لما وصلوا، كنت في بيت عمي. كل اللي كانوا معنا هربوا. بقيت لوحدي أنا وعمتي المريضة. دخل فدائي وصوّب الرشاش لصدري وسألني: «كم فدائي قتلت؟» قلت: «يا عمي، أنا ما بعرف حارب. مش صنعتي الضرب والقتل. شو لي دخل مع الفدائيه؟» قال: «افتح الخزنة! حالاً افتح الخزنة وإلا بطخّك!» في ببيت عمي صندوق حديد ما بعرف شو فيه. المفاتيح مع عمي، وعمي ترك البيت قبل بيوم... صارت عمتي تبكي وتترجّا الفدائي وهو مصوب رشاشه عليّ ويتهددني. كان في رأسي شوية عقل وطار. صرت ارجف كلني سوى وصرخت بوجهه: «تفضل! ما في معي إلا هالمفاتيح... (ورميت له مفاتيح خزانتي). بدك تقتلني، اقتلني، مش خايف منك!» لما شافني بهالحالة وعينيّ نافرين من وجهي وعمبرجف كلني سوى برقروقة البيجاما، اجاه الضحك وقال: «يا عيني، يا عيني! ملاّ مساتر!» بعدها أخذونا أنا وعمتي لكنيسة السيدة. ترجيتهم لأرجع جيب حرامي وثيابي. الدنيا برد وشتا. ما قبلوا... في الكنيسة صاروا يروقوها معنا ويقدموا لنا كولا. لا هيك ولا هيك! لا بدنا يحرقوا لنا بيوتنا ولا بدنا يسقونا كولا. ثاني يوم أخذونا إلى صبرا. كنت خايف يعذبوني ويذبحوني. لا. جمعونا في مدرسة وحطونا تحت حراسة وصاروا يقدموا لنا مأكولات. فتحوا لي علبة حمص بطحيني بدون حامض وزيت. نرفزت وقلت للحراس: «يا عمي أنا مش معتاد آكل حمص بدون حامض وزيت!» ضحكوا وراحوا فتشوا لي على حامض وزيت.

جورج عساف (١٤ سنة): (نقلاً عن جريدة السفير – عدد ٢٦-١-٧٦):

كنت مع أبي وأمي وإخوتي الأربعة نائمين عندما سمعنا طرقًا على الباب. خاف أبي فلم يفتح وإذا بالرصاص ينهمر. قتل أبي وأصيبت أمي. جيراننا كانوا عندنا. مات اثنان منهم الأب والأم. في الصباح أخذنا خالي إلى قصر شمعون. نمنا هناك ثم جئنا إلى الدبيه.

رشيد القزي: (نقلاً عن جريدة السفير أيضًا:)

حاولنا دائمًا تحييد الدامور ووضع حدّ لاستفزازات البعض... فلم نفلح. فكانت النتيجة ما وصلنا إليه الآن.

عيان: «سمعنا طلقة من جفت ميشال وسمعنا صرخة رجل أصيب وبعدها سمعنا دوي قذيفة تنفجر». اقتحم المسلحون متراس ميشال الصغير المصنوع من بضعة أكياس رمل على باب المنزل واعتقلوه مع ابنه وبيد كل منهما جفت صيد. وخاطبوا سائر أفراد العائلة الباقين بقولهم «أنتم روحوا للكنيسه!» فذهب الجميع بمن فيهم زوجة ميشال وولداه وبعد برهة سمع طلقان: واحد قتل ميشال والثاني قتل ابنه عمون. وألقيت جثتاهما[١٠٩] على الطريق قرب منزل الياس نجم الغريب ومنزل الياس نعمه حيث كانت جثة خليل غنيمه أيضًا...

ج. عياط:

(سائق سيارة فلسطيني من مواليد عكا، حائز على الجنسية اللبنانية)

إني أتردد على الدامور منذ ٢٠ سنة، ومنذ ٧ سنين سكنت فيها أنا وشقيقاتي. قبل اقتحام البلدة بنحو شهر، كانت سيارة تمر على الطريق العام قرب بيت الكتائب فأوقفها أحد العناصر غير المنضبطة وأنزل ركابها الخمسة ٣ نساء ورجلان أحدهم فلسطيني خطيب فتاة من حارة الناعمة واقتادهم لجهة فبركة الكبريت وأساء معاملتهم... لما وصل الخبر إلى أحد المسؤولين في حزب الأحرار بادر إلى محل الحادث وفكّ المربوطين وحصل خلاف بينه وبين الجاني فهرب هذا الأخير واختبأ في بيت الكتائب ولما عرف هؤلاء بما فعل، فصلوه عن الحزب. وفي ذات يوم كانت سيارة موز قادمة من صور فأوقفها أحد المسلحين من العناصر غير المنضبطة وسلب من السائق ٢٠٠ ليرة لبنانية وفرّق الموز على بعض المارين ولما عرف المسؤول في حزب الأحرار استاء وتدخل في القضية وأرجع المال المسلوب إلى صاحبه وأعاد إلى السيارة حمولتها من موز الدامور. وكنت أسمع من البعض أن عناصر غير منضبطة أقدمت على خطف بعض الفلسطينيين، إنما كان ذلك يجري بالخفاء دون علم المسؤولين ودون موافقة أهل البلدة. ومن الحوادث التي سمعت بها حادث حصل على جسر الدامور حيث أنزلوا ركاب سيارة عمومية وقتلوا بعضهم ونجا واحد، فثارت نقمة الفلسطينيين في صور وقتلوا ثلاثة من الداموريين العاملين هناك... أما أنا فقد حاولوا مرتين أن ينسفوا الغرفة التي أسكنها مع أني كنت أحمل توصية من الرئيس شمعون وأنا مسيحي من طائفة الروم الكاثوليك.

---

١٠٩) يقول البعض ان مصير عمون ابن ميشال لا يزال مجهولاً حتى كتابة هذه الأسطر.

عيان: «سمعنا طلقة من جفت ميشال وسمعنا صرخة رجل أصيب وبعدها سمعنا دوي قذيفة تنفجر». اقتحم المسلحون متراس ميشال الصغير المصنوع من بضعة أكياس رمل على باب المنزل واعتقلوه مع ابنه وبيد كل منهما جفت صيد. وخاطبوا سائر أفراد العائلة الباقين بقولهم «أنتم روحوا للكنيسه!» فذهب الجميع بمن فيهم زوجة ميشال وولداه وبعد برهة سمع طلقان: واحد قتل ميشال والثاني قتل ابنه عمون. وألقيت جثتاهما[١٠٩] على الطريق قرب منزل الياس نجم الغريب ومنزل الياس نعمه حيث كانت جثة خليل غنيمه أيضًا...

ج. عياط:

(سائق سيارة فلسطيني من مواليد عكا، حائز على الجنسية اللبنانية)

إني أتردد على الدامور منذ ٢٠ سنة، ومنذ ٧ سنين سكنت فيها أنا وشقيقاتي. قبل اقتحام البلدة بنحو شهر، كانت سيارة تمر على الطريق العام قرب بيت الكتائب فأوقفها أحد العناصر غير المنضبطة وأنزل ركابها الخمسة ٣ نساء ورجلان أحدهم فلسطيني خطيب فتاة من حارة الناعمة واقتادهم لجهة فبركة الكبريت وأساء معاملتهم... لما وصل الخبر إلى أحد المسؤولين في حزب الأحرار بادر إلى محل الحادث وفكّ المربوطين وحصل خلاف بينه وبين الجاني فهرب هذا الأخير واختبأ في بيت الكتائب ولما عرف هؤلاء بما فعل، فصلوه عن الحزب. وفي ذات يوم كانت سيارة موز قادمة من صور فأوقفها أحد المسلحين من العناصر غير المنضبطة وسلب من السائق ٢٠٠ ليرة لبنانية وفرّق الموز على بعض المارين ولما عرف المسؤول في حزب الأحرار استاء وتدخل في القضية وأرجع المال المسلوب إلى صاحبه وأعاد إلى السيارة حمولتها من موز الدامور. وكنت أسمع من البعض أن عناصر غير منضبطة أقدمت على خطف بعض الفلسطينيين، إنما كان ذلك يجري بالخفاء دون علم المسؤولين ودون موافقة أهل البلدة. ومن الحوادث التي سمعت بها حادث حصل على جسر الدامور حيث أنزلوا ركاب سيارة عمومية وقتلوا بعضهم ونجا واحد، فثارت نقمة الفلسطينيين في صور وقتلوا ثلاثة من الداموريين العاملين هناك... أما أنا فقد حاولوا مرتين أن ينسفوا الغرفة التي أسكنها مع أني كنت أحمل توصية من الرئيس شمعون وأنا مسيحي من طائفة الروم الكاثوليك.

---

١٠٩) يقول البعض ان مصير عمون ابن ميشال لا يزال مجهولاً حتى كتابة هذه الأسطر.

الأب منصور لبكي خوري رعية الدامور يتكلم:

(لخصنا وعرّبنا هذه الشهادة عن شريط طويل مسجل باللغة الفرنسية للأب م.ل.)
ابتدأت مأساة الدامور في ٩ كانون الثاني ١٩٧٦. في مثل هذا اليوم تقضي تقاليدنا الدينية بأن يطوف الكاهن على بيوت رعيته ويرشها بالماء المصلاّة. كنت أقوم بواجبي هذا في الحي المسَّمى «حارة الروس» عندما سمعت زخة رصاص تنطلق فجأة من حارة الناعمة. فاتصلت هاتفيًا بمختار الحارة مستفسرًا. أجابني:

– أبونا، لا تشغلوا بالكم. حصل خلاف بين أهل الحارة وبعض الفلسطينيين. لقد خطف هؤلاء أشخاصًا من الدامور وأتوا بهم إلى حارتنا فطلبنا منهم إطلاق سراحهم، فأبوا.

اتصلت بالمختار مرة ثانية وعرضت عليه أن يصار إلى عقد ميثاق عدم تعدّي بين حارة الناعمة والدامور. أجابني:

– أبونا، سأحاول أن أقنع الشباب، لكني لست واثقًا من النجاح.

ولما عدت إلى الهاتف لأعرف الجواب، قال:

– آسف، إن الفلسطينيين يرفضون عرضكم.

في تلك الليلة وصلني الخبر أنّ نحو ١٢ ألف مقاتل أتوا من مختلف النواحي لمحاصرة الدامور. باشرت بالاتصالات مع الرؤساء الروحيين والزمنيين طالبًا أن يعملوا كل ما بوسعهم لفك الحصار ولكن دون جدوى...

سكان الدامور من الطبقة الوسطى. لا هم فقراء ولا هم من أصحاب الملايين. وهم قوم مسالمون. تسعون بالمئة منهم تربطهم صداقات متينة مع جيرانهم الدروز والسنيين وغيرهم. الطبيب الداموري يعتني بالمسلمين والدروز القاطنين في القرى المجاورة كما يعتني بأهل بلدته تمامًا. لذلك لم يكن ليمرَّ في خلد الداموريين أنّهم سيخوضون حربًا طائفية بهذه البشاعة و لم يكونوا مستعدين لها...

الهجوم الأول استهدف «حارة الروس» وكان شرسًا. فقد ذبحت عائلات بكاملها... ثم قام المحاصرون بهجوم أشد ضراوة. في ذلك الحين كنت موجودًا في كنيسة مار الياس حيث تجمَّع نحو خمسماية من أهالي الدامور فروا ليلاً من بيوتهم

الأب منصور لبكي خوري رعية الدامور يتكلم:

(لخصنا وعرّبنا هذه الشهادة عن شريط طويل مسجل باللغة الفرنسية للأب م.ل.)
ابتدأت مأساة الدامور في ٩ كانون الثاني ١٩٧٦. في مثل هذا اليوم تقضي تقاليدنا الدينية بأن يطوف الكاهن على بيوت رعيته ويرشها بالماء المصلاّة. كنت أقوم بواجبي هذا في الحي المسَّمى «حارة الروس» عندما سمعت زخة رصاص تنطلق فجأة من حارة الناعمة. فاتصلت هاتفيًا بمختار الحارة مستفسرًا. أجابني:

– أبونا، لا تشغلوا بالكم. حصل خلاف بين أهل الحارة وبعض الفلسطينيين. لقد خطف هؤلاء أشخاصًا من الدامور وأتوا بهم إلى حارتنا فطلبنا منهم إطلاق سراحهم، فأبوا.

اتصلت بالمختار مرة ثانية وعرضت عليه أن يصار إلى عقد ميثاق عدم تعدّي بين حارة الناعمة والدامور. أجابني:

– أبونا، سأحاول أن أقنع الشباب، لكني لست واثقًا من النجاح.

ولما عدت إلى الهاتف لأعرف الجواب، قال:

– آسف، إن الفلسطينيين يرفضون عرضكم.

في تلك الليلة وصلني الخبر أنّ نحو ١٢ ألف مقاتل أتوا من مختلف النواحي لمحاصرة الدامور. باشرت بالاتصالات مع الرؤساء الروحيين والزمنيين طالبًا أن يعملوا كل ما بوسعهم لفك الحصار ولكن دون جدوى...

سكان الدامور من الطبقة الوسطى. لا هم فقراء ولا هم من أصحاب الملايين. وهم قوم مسالمون. تسعون بالمئة منهم تربطهم صداقات متينة مع جيرانهم الدروز والسنيين وغيرهم. الطبيب الداموري يعتني بالمسلمين والدروز القاطنين في القرى المجاورة كما يعتني بأهل بلدته تمامًا. لذلك لم يكن ليمرَّ في خلد الداموريين أنّهم سيخوضون حربًا طائفية بهذه البشاعة و لم يكونوا مستعدين لها...

الهجوم الأول استهدف «حارة الروس» وكان شرسًا. فقد ذبحت عائلات بكاملها... ثم قام المحاصرون بهجوم أشد ضراوة. في ذلك الحين كنت موجودًا في كنيسة مار الياس حيث تجمَّع نحو خمسماية من أهالي الدامور فروا ليلاً من بيوتهم

هجر الداموريون بيوتهم دون أن يحملوا معهم شيئًا من أمتعتهم، حتى ولا بطاقات هويتهم...

أما الضحايا فعددهم حسب تقديرات الصليب الأحمر يتراوح ما بين ٥٨٠ و٦٠٠. لكن القتلى الذين سُجِّلت أسماؤهم بناء لتصريحات ذويهم فعددهم لا يتجاوز المائة وثلاثين. بيوت الدامور كلها أحرقت أو دُمِّرت. ومما يثير الدهشة أنّ عددًا كبيرًا من الضحايا، نحو ٤٥ بالمائة، ينتمون إلى حزب كمال جنبلاط. في الدامور قسم لا بأس به من الأهالي يصوتون أثناء الانتخابات للائحة جنبلاط وفاءً للدكتور عزيز عون الذي له عليهم ايد بيضاء.

كلنا نتساءل: لماذا؟ لماذا اقتحموا الدامور وعملوا على حرقها وتدميرها بمثل هذه الضراوة؟ شخصيًا أنا أعتقد أن ثمّة مؤامرة على لبنان المسيحي خططها الشيوعيون بقصد قلب النظام فتحالف معهم المسلمون وحركة المحرومين والمقاومة الفلسطينية. المتحالفون لهم أهداف متباينة ومتناقضة لكنهم اتفقوا على السير معًا على أن يفترقوا بعد حين... وأعتقد أيضًا أنّ ثمة مخطّطا لإعطاء لبنان وطنًا بديلاً للفلسطينيين، لكن «كشّافة بيار الجميل» كما كان أحد السفراء يسمي الكتائب استطاعوا بصمودهم أن يفسدوا الخطة...

أما الدامور بوجه خاص فقد اختاروها ليسجلوا باقتحامها نصرًا لامعًا بعد سلسلة من النكسات... وقد زعموا أنهم باحتلال الدامور وتدميرها يردون على احتلال الكرنتينا والمسلخ من قِبَل الكتائب، مع أنّ المقارنة بين الدامور والكرنتينا هي بنظري خاطئة، فالكرنتينا لا يسكنها إلا غرباء معظمهم فرّوا من وجه العدالة واغتصبوا أرض الغير... ومنهم القنّاصة الذين لا عمل لهم سوى إطلاق الرصاص على المارة. فهل تجوز المقارنة ما بين هؤلاء الخارجين على القانون وبين أهل الدامور!

الرئيس كميل شمعون يتحدث عن معركة الدامور:

في كتابه الصادر باللغة الفرنسية تحت عنوان «أزمة في لبنان» يروي الرئيس شمعون (من الصفحة ١٣ إلى الصفحة ٢٩)

المرحلة الحاسمة من معركة الدامور ابتداءً من يوم الأربعاء ١٤ كانون الثاني ١٩٧٦ لغاية الثلاثاء ٢٠. نستخلص من هذه الصفحات المعلومات التالية:

هجر الداموريون بيوتهم دون أن يحملوا معهم شيئًا من أمتعتهم، حتى ولا بطاقات هويتهم...

أما الضحايا فعددهم حسب تقديرات الصليب الأحمر يتراوح ما بين ٥٨٠ و٦٠٠. لكن القتلى الذين سُجِّلت أسماؤهم بناء لتصريحات ذويهم فعددهم لا يتجاوز المائة وثلاثين. بيوت الدامور كلها أحرقت أو دُمِّرت. ومما يثير الدهشة أنّ عددًا كبيرًا من الضحايا، نحو ٤٥ بالمائة، ينتمون إلى حزب كمال جنبلاط. في الدامور قسم لا بأس به من الأهالي يصوتون أثناء الانتخابات للائحة جنبلاط وفاءً للدكتور عزيز عون الذي له عليهم ايد بيضاء.

كلنا نتساءل: لماذا؟ لماذا اقتحموا الدامور وعملوا على حرقها وتدميرها بمثل هذه الضراوة؟ شخصيًا أنا أعتقد أن ثمّة مؤامرة على لبنان المسيحي خططها الشيوعيون بقصد قلب النظام فتحالف معهم المسلمون وحركة المحرومين والمقاومة الفلسطينية. المتحالفون لهم أهداف متباينة ومتناقضة لكنهم اتفقوا على السير معًا على أن يفترقوا بعد حين... وأعتقد أيضًا أنّ ثمة مخطّطا لإعطاء لبنان وطنًا بديلاً للفلسطينيين، لكن «كشّافة بيار الجميل» كما كان أحد السفراء يسمي الكتائب استطاعوا بصمودهم أن يفسدوا الخطة...

أما الدامور بوجه خاص فقد اختاروها ليسجلوا باقتحامها نصرًا لامعًا بعد سلسلة من النكسات... وقد زعموا أنهم باحتلال الدامور وتدميرها يردون على احتلال الكرنتينا والمسلخ من قِبَل الكتائب، مع أنّ المقارنة بين الدامور والكرنتينا هي بنظري خاطئة، فالكرنتينا لا يسكنها إلا غرباء معظمهم فرّوا من وجه العدالة واغتصبوا أرض الغير... ومنهم القنّاصة الذين لا عمل لهم سوى إطلاق الرصاص على المارة. فهل تجوز المقارنة ما بين هؤلاء الخارجين على القانون وبين أهل الدامور!

الرئيس كميل شمعون يتحدث عن معركة الدامور:

في كتابه الصادر باللغة الفرنسية تحت عنوان «أزمة في لبنان» يروي الرئيس شمعون (من الصفحة ١٣ إلى الصفحة ٢٩)

المرحلة الحاسمة من معركة الدامور ابتداءً من يوم الأربعاء ١٤ كانون الثاني ١٩٧٦ لغاية الثلاثاء ٢٠. نستخلص من هذه الصفحات المعلومات التالية:

وفي بعبدا وصل الرئيس بالطوّافة ليبحث مع كبار المسؤولين عملية إغاثة اللاجئين إلى السعديات، قابل العماد نصر اللّه رئيس الأركان وعاتبه على عدم تدخل الجيش لإنقاذ الدامور والجيه، فأجابه العماد رافعًا يديه نحو السماء: «لم يعد لنا جيش!...» ؛ص ٢٧).

وفي بعبدا وصل الرئيس بالطوّافة ليبحث مع كبار المسؤولين عملية إغاثة اللاجئين إلى السعديات، قابل العماد نصر اللّه رئيس الأركان وعاتبه على عدم تدخل الجيش لإنقاذ الدامور والجيه، فأجابه العماد رافعًا يديه نحو السماء: « لم يعد لنا جيش!...» ؛ص ٢٧).

الخلاصة

حزيران ١٩٧٧

هل من فصل أخير لهذه المأساة؟ صيف آخر يطل علينا وقضية الدامور تُراوح مكانها. مثل أبطال الدراما التقليدية، نتأرجح بين فترة أمل وفترة يأس، بين تصريح يبعث الأمل وآخر يقطع الرجاء. نلتهم الصحف يوميًا لعلّنا نقع على خبر يزفّ لنا البشرى. قرأنا في الأسبوع الفائت ان النائب حسين منصور قابل رئيس الجمهورية بخصوص مهجّري حوش الأمراء وتعلبايا (هناك من يحكي بقضيتهم! «نيّالهم!») وصرح للصحافيين بعد المقابلة:

«الرئيس مطمئن وقد أكد أنّ سبحة عودة المهجرين ستكرّ بعد أن تحل قضية مهجري الدامور»[١١٠]. وأشيع على أثر ذلك أن عودة الداموريين ستتم خلال شهر حزيران. أسبوع، أسبوعان، ثلاثة مضت ونحن بالانتظار والأمل يلطِّف أوجاعنا، إلى أن طلعت علينا الصحيفة ذاتها لتقول:

«... في وقت لاحق وصل إلى بعبدا محافظ الشمال وقال في تصريح بعد مغادرته القصر انّ الحل الجذري لقضية المهجرين سيكون من ضمن الحل العام، لأنّ هذه القضية لا يمكن أن تعالج على صعيد إقليمي...»[١١١] ثم تمر الأيام وتكرّ سبحة الأحداث الروتينية، وسبحتنا لا تكر. فيعود التعتيم. سكوت... سكوت مطبق... تكهنات هاربة، همسات حائرة وليلنا لا آخر له، ولا لاشتياقنا إلى رائحة تربة الدامور. «ربما بعد حل قضية الجنوب... أو بعد زيارة بغين لواشنطن أو بعد إنجاز مخيم البيسرية، ربما بعد الحل السياسي... أو بعد مؤتمر جنيف... أو عند لقاء الرئيس كارتر وليونيد بريجنيف...»

ماذا يضرّ الداموريين لو ظلوا قابعين في الظلمة البرانية سنة أخرى أو سنتين أو أكثر؟ ألا يوجد في العالم من هم أتعس منهم؟

هكذا نتأرجح، وكلما لاح بريق أمل، تتولى يد خفية الزجّ بنا في بحر من اليأس أعمق فأعمق. دكاترة السياسة يوزعون علينا في كل صباح ومساء، يوزعون علينا وعلى

١١٠) الأنوار، عدد ١٩٧٧/٥/١٤.
١١١) الأنوار، عدد ١٩٧٧/٦/١٢.

ولا إلى دبلوماسيين ماهرين ولا إلى رجال دولة عباقرة، إنها بحاجة إلى متصوفين، إلى قديسين يحملون في صدورهم آلام أمتهم.

على بعد بضعة أميال من هنا، كان ابن نجّار ناصري يحلم مثلنا ويطرح الأسئلة. كان مثلنا يتمعّن بهذا المشروع الفاشل الذي يسمونه «الحياة» حيث كل شريك مساهم يفني عمره سعيًا وراء الربح، وراء إنجاح المشروع والموت يتربص به وبشركائه، ومشاريعه تذهب معه أدراج الرياح، كان يطرح على صعيد الفرد السؤال الملحّ: «ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم وخسر نفسه!» هذا هو السؤال الذي نطرحه اليوم على صعيد الدول العملاقة فاما أن تكون الأنسنة تضامنًا وتكافلاً بين جميع الناس في سبيل السمو بالإنسان واما أن تتحول إلى بربرية وانحدار إلى ما دون الحيوانية والهمجية...: ماذا ينفع الأنظمة إذا ربحت هذه المنطقة بأسرها وخسرت لبنان؟ وماذا ينفع العالم إذا قهر الأفلاك وغزا الكواكب وسخَّر التكنولوجيا لمطامحه إذا ترك في زاوية من الزوايا قرية على الهامش إسمها الدامور يصلب فيها الإنسان ويموت وفي قلبه حسرة لكونه غير مطمئن إلى الحفرة التي سيرمون فيها جثته؟

والقضية الفلسطينية في أية حفرة مبتكرة سيحاولون أن يزجّوا بها؟ القضية لم تدفن في الدامور ولن تدفن مهما ابتكروا لدفنها من حفر، إنها وجه من أوجه الصراع الأبدي: صراع العنف مع الحقيقة، هذا الصراع الذي عجزت الأنظمة كلها عن تلافيه وسوف تتلف فيه. «عجزوا عن جعل القوة في خدمة العدالة، فجعلوا العدل في خدمة القوة»[١١٣]. القضية الفلسطينية لن تدفن مهما نصبوا لها من أشراك ومهما قدموا لدفنها من ذبائح لأنها وجه من أوجه الصراع الأبدي. فلو بقي فلسطيني واحد قيد الحياة سيظل يصرخ في وجه العالم: «أنا أرفض أن أذوب في محيطي! أريد أن أساهم بازدهاره، لا أريد أن أذوب فيه!» المهم أن لا يدفن الفلسطينيون قضيتهم بأيديهم. لقد قدمت الثورة الفلسطينية آلاف الشهداء والفلسطينيون لا يزالون يفتشون عن الطريق النافذ. يكاد لا يمر أسبوع إلا ونسمع بوقوع صدام دامٍ ما بين المنظمات. من أين الطريق؟ أتمر بجونيه عبر الماركسية؟ أتمر بالدامور عبر القومية العربية؟ أم بحقول النفط عبر الحلف الأطلسي؟ من سيجترح المعجزة؟ من سيقول للفلسطينيين بصراحة وإخلاص: «ماذا ينفع الإنسان إذا ربح وطنًا ومنزلاً وخسر الأخوة والصداقة بين الأهل وبين الجار والجار وبين الضيف

---

١١٣) باسكال Pascal

ولا إلى دبلوماسيين ماهرين ولا إلى رجال دولة عباقرة، إنها بحاجة إلى متصوفين، إلى قديسين يحملون في صدورهم آلام أمتهم.

على بعد بضعة أميال من هنا، كان ابن نجّار ناصري يحلم مثلنا ويطرح الأسئلة. كان مثلنا يتمعّن بهذا المشروع الفاشل الذي يسمونه «الحياة» حيث كل شريك مساهم يفني عمره سعيًا وراء الربح، وراء إنجاح المشروع والموت يتربص به وبشركائه، ومشاريعه تذهب معه أدراج الرياح، كان يطرح على صعيد الفرد السؤال الملحّ: «ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم وخسر نفسه!» هذا هو السؤال الذي نطرحه اليوم على صعيد الدول العملاقة فاما أن تكون الأنسنة تضامنًا وتكافلاً بين جميع الناس في سبيل السمو بالإنسان واما أن تتحول إلى بربرية وانحدار إلى ما دون الحيوانية والهمجية...: ماذا ينفع الأنظمة إذا ربحت هذه المنطقة بأسرها وخسرت لبنان؟ وماذا ينفع العالم إذا قهر الأفلاك وغزا الكواكب وسخَّر التكنولوجيا لمطامحه إذا ترك في زاوية من الزوايا قرية على الهامش إسمها الدامور يصلب فيها الإنسان ويموت وفي قلبه حسرة لكونه غير مطمئن إلى الحفرة التي سيرمون فيها جثته؟

والقضية الفلسطينية في أية حفرة مبتكرة سيحاولون أن يزجّوا بها؟ القضية لم تدفن في الدامور ولن تدفن مهما ابتكروا لدفنها من حفر، إنها وجه من أوجه الصراع الأبدي: صراع العنف مع الحقيقة، هذا الصراع الذي عجزت الأنظمة كلها عن تلافيه وسوف تتلف فيه. «عجزوا عن جعل القوة في خدمة العدالة، فجعلوا العدل في خدمة القوة»[١١٣]. القضية الفلسطينية لن تدفن مهما نصبوا لها من أشراك ومهما قدموا لدفنها من ذبائح لأنها وجه من أوجه الصراع الأبدي. فلو بقي فلسطيني واحد قيد الحياة سيظل يصرخ في وجه العالم: «أنا أرفض أن أذوب في محيطي! أريد أن أساهم بازدهاره، لا أريد أن أذوب فيه!» المهم أن لا يدفن الفلسطينيون قضيتهم بأيديهم. لقد قدمت الثورة الفلسطينية آلاف الشهداء والفلسطينيون لا يزالون يفتشون عن الطريق النافذ. يكاد لا يمر أسبوع إلا ونسمع بوقوع صدام دامٍ ما بين المنظمات. من أين الطريق؟ أتمر بجونيه عبر الماركسية؟ أتمر بالدامور عبر القومية العربية؟ أم بحقول النفط عبر الحلف الأطلسي؟ من سيجترح المعجزة؟ من سيقول للفلسطينيين بصراحة وإخلاص: «ماذا ينفع الإنسان إذا ربح وطنًا ومنزلاً وخسر الأخوة والصداقة بين الأهل وبين الجار والجار وبين الضيف

---

١١٣) باسكال Pascal

- هات ليرة، هات نصف، والجرو لك.

- لا. الكلب وسخ وبشع. عشرة قروش فقط.

- طرّيها شويه يا معلم... هات ربع وخذه.

نفسي تحدثني بأن أتدخل وأزايد... ولكن إلى أين أحمل هذا الجرو المسكين وأنا مشرد مثله. تذكرت كلبتي. ماذا حل «بموشى»؟ التهمتها النيران يوم اقتحام الدامور. أنهت حياتها مع نهاية البيت الذي كرست حياتها لحراسته، مع نهاية الدامور التي أحبتها وعاشت من خيراتها. أما كان الأجدر بنا نحن أيضًا أن ننهي حياتنا مع نهاية الأشياء التي أحببناها؟

جاءني محمود بفنجان القهوة بعد أن سخنه. قهوة الصبر لا تُشرب باردة... قهوة الصبر محلاّة بقليل من سكّر الأمل: «سُبحة المهجرين ستكرّ.. لا بد أن تكر.. الرئيس مطمئن»... عادت ابتسامة الشيخ المحتضر ترتسم في مخيلتي، تركته في الدير ما بين الحياة والموت. عساه يتغلب على الموت إلى أن تتحقق أمنيته الأخيرة. عادت ابتسامته الكئيبة إلى ذاكرتي وعاد معها صدى أبيات لجلال الدين الرومي طالما سمعته يرددها:

«غريب دخل بيتي دون استئذان...

أحرق كل شيء وأدمى قلبي...

أجبرني على أن أبقى من المساء إلى الصباح سجينًا في بيتي الملتهب...

أشاهد كل جنى حياتي يتلاشى طعمًا للنار...

ولما وقفت على العتبة مودعًا، منتحبًا...

بادرني بسؤال لا يزال صداه يحزّ في قلبي:

- قل لي من منا أشد لوعة وتعاسة:

أأنا أم أنت؟».

– هات ليرة، هات نصف، والجرو لك.

– لا. الكلب وسخ وبشع. عشرة قروش فقط.

– طرّيها شويه يا معلم... هات ربع وخذه.

نفسي تحدثني بأن أتدخل وأزايد... ولكن إلى أين أحمل هذا الجرو المسكين وأنا مشرد مثله. تذكرت كلبتي. ماذا حل «بموشى»؟ التهمتها النيران يوم اقتحام الدامور. أنهت حياتها مع نهاية البيت الذي كرست حياتها لحراسته، مع نهاية الدامور التي أحبتها وعاشت من خيراتها. أما كان الأجدر بنا نحن أيضًا أن ننهي حياتنا مع نهاية الأشياء التي أحببناها؟

جاءني محمود بفنجان القهوة بعد أن سخنه. قهوة الصبر لا تُشرب باردة... قهوة الصبر محلاّة بقليل من سكّر الأمل: «سُبحة المهجرين ستكرّ.. لا بد أن تكر.. الرئيس مطمئن»... عادت ابتسامة الشيخ المحتضر ترتسم في مخيلتي، تركته في الدير ما بين الحياة والموت. عساه يتغلب على الموت إلى أن تتحقق أمنيته الأخيرة. عادت ابتسامته الكئيبة إلى ذاكرتي وعاد معها صدى أبيات لجلال الدين الرومي طالما سمعته يرددها:

«غريب دخل بيتي دون استئذان...

أحرق كل شيء وأدمى قلبي...

أجبرني على أن أبقى من المساء إلى الصباح سجينًا في بيتي الملتهب...

أشاهد كل جنى حياتي يتلاشى طعمًا للنار...

ولما وقفت على العتبة مودعًا، منتحبًا...

بادرني بسؤال لا يزال صداه يحزّ في قلبي:

– قل لي من منا أشد لوعة وتعاسة:

أأنا أم أنت؟».

الفهرست

مَن هو ميشال فريد غريّب؟

من مواليد الدامور، لبنان، ١٩١٢. تلقّى دروسه الثانوية في جامعة القدّيس يوسف، بيروت، نال بعدها شهادة الحقوق، لكنه أعرض عن فنّ المحاماة لينصرف إلى فن التعليم الذي مارسَهُ نحو عِقدَين مِن السنين، في الكلية البطريركية، بيروت، حيث اضطلع بتدريس الأدب الفَرنسي لصفوف البكالوريا.

في الخامسة والعشرين من العمر، أصدر مجموعة شِعر باللغة الفرنسية: «عطور في الظِل». أتبعَها بعد حين، مؤلَّفه الكبير: «تاريخ آداب اللغة الفرنسية» في خمسة أجزاء، شاركه في تأليفه اثنان من زملائه: أنطوان شيخاني وشارل بشاره. ثم تحوّل عن الكتابة بالفرنسية حين استهواه درس المتصوّفين المَشارقة والتعمُّق في تحليل شخصياتهم وبَسْط أحوالهم. وما لبث حتى نشرَ كتاب «الحلاّج أو وضوء الدم» باللغة العربية، عرض فيه سيرة هذا المتصوّف الفارسي المشهور مع نماذج محلّلة من شعره. ثم أصدر دراسة في تصوّف ابن الفارض وشِعره.

إلى الدراسات العلمية التي أشرنا إليها، أضاف كتُبًا عبَّر فيها عن وَعيه الاجتماعي واهتمامه بشؤون وطنه. فأصدر سنة ١٩٧٠ كتاب «هذا الكَون الممزَّق»، عالج فيه القضيّة الفلسطينية من وجهة نظر موضوعية، ثم في ١٩٧٥، كتابه في تاريخ الدامور: «دامور مَن أنتِ؟»، عرض فيه تاريخ هذه البلدة، واصفًا أحوالها وتطوُّرها ومعاناتها منذ نشوئها حتى نكبتها سنة ١٩٧٦.

في سنة ١٩٧٨ نشر باللغة الفرنسية مجموعة شعرية عنوانها «إلى لبنان في مِحنته». وترك مخطوطة في اللغة العربية لدراسةٍ عنوانها «حتى الرمَق الأخير». عالجَ فيها بصدقٍ وبُعد نظر بعض قضايا بلاده، مُبديًا رأيه الشخصي في هذا المضمار.

تُوفّي في أيار ١٩٩٦.

مَن هو ميشال فريد غريّب؟

من مواليد الدامور، لبنان، ١٩١٢. تلقّى دروسه الثانوية في جامعة القدّيس يوسف، بيروت، نال بعدها شهادة الحقوق، لكنه أعرض عن فنّ المحاماة لينصرف إلى فن التعليم الذي مارسَهُ نحو عِقدَين مِن السنين، في الكلية البطريركية، بيروت، حيث اضطلع بتدريس الأدب الفَرنسي لصفوف البكالوريا.

في الخامسة والعشرين من العمر، أصدر مجموعة شِعر باللغة الفرنسية: «عطور في الظِل». أتبعَها بعد حين، مؤلَّفه الكبير: «تاريخ آداب اللغة الفرنسية» في خمسة أجزاء، شاركه في تأليفه اثنان من زملائه: أنطوان شيخاني وشارل بشاره. ثم تحوّل عن الكتابة بالفرنسية حين استهواه درس المتصوّفين المَشارقة والتعمُّق في تحليل شخصياتهم وبَسْط أحوالهم. وما لبث حتى نشرَ كتاب «الحلاّج أو وضوء الدم» باللغة العربية، عرض فيه سيرة هذا المتصوّف الفارسي المشهور مع نماذج محلّلة من شعره. ثم أصدر دراسة في تصوّف ابن الفارض وشِعره.

إلى الدراسات العلمية التي أشرنا إليها، أضاف كتُبًا عبَّر فيها عن وَعيه الاجتماعي واهتمامه بشؤون وطنه. فأصدر سنة ١٩٧٠ كتاب «هذا الكَون الممزَّق»، عالج فيه القضيّة الفلسطينية من وجهة نظر موضوعية، ثم في ١٩٧٥، كتابه في تاريخ الدامور: «دامور مَن أنتِ؟»، عرض فيه تاريخ هذه البلدة، واصفًا أحوالها وتطوُّرها ومعاناتها منذ نشوئها حتى نكبتها سنة ١٩٧٦.

في سنة ١٩٧٨ نشر باللغة الفرنسية مجموعة شعرية عنوانها «إلى لبنان في مِحنته». وترك مخطوطة في اللغة العربية لدراسةٍ عنوانها «حتى الرمَق الأخير». عالجَ فيها بصدقٍ وبُعد نظر بعض قضايا بلاده، مُبديًا رأيه الشخصي في هذا المضمار.

تُوفّي في أيار ١٩٩٦.

تمّ طبع هذا الكتاب

على نفقة روز غريّب.

يُرصد ريعه لنشر كتُب أخرى لمؤلّفه.

طبعة ثانية

مزيدة ومنقّحة

٢٠٠٠